الفصل السادس عشر

وطن الداعية حيث مصلحة الدعوة

رغم مظاهر الجوار التي شهدناها في الفصل السابق ، لكنَّ هذه المظاهر كانت تتركز على الحماية الشخصية للداعية دون أن يملك حريته كاملة في الدعوة لدينه ، والعبادة في مجتمعه ، وليس كل جنود الدعوة يملكون حتى هذه الحماية المحدودة . وحين يقوى ساعد الدعوة ، كان الإرهاب يزداد ، والأذى يشتد ، ويبذل المشركون كل ما يملكون في حرب هذا الدين الجديد . وكان رسول الله ﷺ يتفطر قلبه لما يصيب أصحابه من هذا ، وهو غير قادر على منعه ، وكان لا بد أن يبحث عن موطن آمن لأصحابه ودعوته ، فكان التوجيه الأول منه ﷺ إلى الحبشة .

(فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت :

لما ضاقت مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شيء مما يكره ، ومما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله ﷺ : **« إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده ، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم**

فيه » فخرجنا إليها إرسالاً حتى اجتمعنا بها)[1] .

الهجرة إلى الحبشة :

وكان أول من هاجر صهر رسول الله ﷺ وابنته .

فعن أنس بن مالك قال :

خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، إلى أرض الحبشة فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش ، فقالت : يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : « **على أي حال رأيتهما ؟** » قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ، وهو يسوقها ، فقال رسول الله ﷺ : « **صحبهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام** »)[2] .

قال ابن إسحاق :

وكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبدشمس عثمان بن عفان

معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ .

ومن بني عبد شمس : أبو حذيفة بن عتبة ، معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي .

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، الزبير بن العوام بن خويلد .

ومن بني عبد الدار بن قصي مصعب بن عمير .

ومن بني زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف .

ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد ، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة .

ومن بني جمح عثمان بن مظعون .

ومن بني عدي بن كعب عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب ، من عنز بن وائل ، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة .

ومن بني عامر بن لؤي أبو سبرة بن أبي رهم .

ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة : وكان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لي بعض أهل العلم)[1] .

والملاحظ في هذه الطليعة الأولى من المهاجرين أنها من أكرم البيوتات المكية وأعرقها . ولعل رسول الله ﷺ أراد أن يرتاد المكان هناك ، ويعرف إمكانية الإقامة لجنده في الحبشة ، ومن أجل هذا كان بينهم خيرة أصحابه ؛ فثلاثة من المبشرين بالجنة كانوا بين هؤلاء العشرة ، وهم عثمان بن عفان ، والزبير

بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف . وليس فيهم من الموالي أو العبيد أو المغمورين أحد .

وعندما كانت الأخبار تفد بحسن المقام ، وطيب الجوار ، توافد المسلمون أرسالاً حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً واثنتي عشرة أمرأة .

ويمكن القول أن جل أصحاب رسول الله ﷺ قد مضى إلى الحبشة ، فعندما أسلم عمر رضي الله عنه بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة كان عدد المسلمين أربعين في رواية وفي الرواية الأخرى سبعين . ولم تكن هجرة من هاجر إلى الحبشة مقصورة على الفرار من الفتنة فقط ، بل صحبها محاولة إقامة قاعدة صلبة للدعوة هناك تحميهم . وحيث أن الحماية ليست متوفرة في مكة إلا لنفر محدود ، ولم تعد مكة أرضاً آمنة لها ، فلا بد من البحث عن موقع آخر يمكن أن يكون عاصمة ثانية لها .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله :

(ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب ، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة ... سبقها الاتجاه إلى الحبشة حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل . والقول بأنهم هاجروا لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية . فلو كان الأمر كذلك ، لهاجر إذن أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين ، غير أن الأمر كان على الضد من هذا ، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا ، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات ، لهم من عصبيتهم ـــ في بيئة قبلية ـــ ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ،

وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين ، منهم جعفر بن أبي طالب ،(وأبوه

وفتيان بني هاشم معه الذين كانوا يحمون النبي ﷺ) ومنهم الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة المخزومي ، وعثمان بن عفان الأموي ... وغيرهم .

وهاجرت نساء كذلك من أوساط البيوت الكبيرة في قريش ، وأبناؤها الكرام المكرمون ، يهاجرون بعقيدتهم ، فراراً من الجاهلية ، تاركين وراءهم كل وشائج القربى ، في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفاً ، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة ، بنت أبي سفيان زعيم الجاهلية ، وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها .. ولكن مثل هذه الأسباب ، لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة ، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة .. وبخاصة حين

نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة ، ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إشهاره إلا ثورة البطارقة عليه ، كما ورد في روايات صحيحة)[1] .

ونستطيع أن نتأكد من هذه المعاني من خلال المقابلة العظيمة التي تمت بين جعفر والنجاشي بعد المحاولة الضخمة التي قامت بها قريش لتحطيم هذه القاعدة الآمنة الجديدة .

قال ابن إسحاق :

ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وتتابع المسلمون حتى

اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً إن كان عمار ابن ياسر فيهم .

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة ، أن عبد الله بن الحارث بن سهم ، حين أمنوا بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشي ، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً ، وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به ، قال :

يا راكباً بلغن عني مغلغلة[1] من كان يرجو بلاغ الله والدين

كل امرئ من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ي في الممات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطَّرحوا قول النبي وعالوا في الموازين
فاجعل عذابك بالقوم الذين بغوا وعائذاً بك أن يعلو فيطغوني)[٢]

قريش تحاول إعادة المهاجرين إليها :

وما كان لمكة أن تصبر على هذا الموقع الجديد الذي ربحه محمد ﷺ ، حتى ولو كان في الحبشة .

قال ابن إسحاق :

حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومي ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه الأدَم[١] ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا بطريقاً من بطارقته إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى

كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلِّمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت :

فخرجا حتى قدما على النجاشي ، ونحن بخير دار عند خير جار ، فلم يبق بطريق إلا دفعا إليه هديته ، قبل أن يكلما النجاشي .. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي ، فقبلها منهم ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بَعَثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى[٢] بهم عيناً ،

وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله ابن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي ، قالت : فقال بطارقته حوله :

صدقاً أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما . فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال :

لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على

غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته[1] فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم :

ما هذا الذي فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب . فقال له :

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـــ قالت : فعدَّد عليه أمور الإسلام ـــ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا . فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا

نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه علي ، قالت : فقرأ عليه صدراً من ﴿ **كهيعص** ﴾ قالت : فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته[1] ، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم :

إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما .

تخطيط ذكي جديد :

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل خضراءهم[1] فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له :

أيها الملك : إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وجاءنا به نبينا كائناً في

ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جعفر : نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشي بيده في الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود . قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال : فقال : وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم شبوم بأرضي .. والشبوم : الآمنون ، من سبَّكم غرم ، من سبكم غرِم ، من سبكم غرم . ما أحب أن لي

دبراً[1] من ذهب ، وأني آذيت رجلاً منكم . ردوا عليهم هداياهم ، فوالله ما أخذ الله الرشوة مني حين ردَّ عليَّ ملكي ، فآخذ الرشوة فيه . وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

وقبل المضي في الحديث عن الأسلوب يحسن الوقوف أمام شخصية جعفر رضي الله عنه ، الذي تم اختياره من المسلمين ليكون خطيباً لله ورسوله بين يدي الملوك ، بين يدي النجاشي ، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص ، وبليغهم كذلك الذي كان عمر بن الخطاب

(أ) فجعفر بن أبي طالب ، ألصق الناس برسول الله ﷺ ،

فقد عاش معه في بيت واحد ، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة وسيد الأمة بين كل المهاجرين إلى الحبشة .

(ب) وهذا الموقف بين يدي النجاشي يحتاج إلى فصاحة وبلاغة ، وبنو هاشم قمة قريش نسباً وفضلاً وجعفر في الذؤابة من بني هاشم .

(جـ) وجعفر ابن عم رسول الله ﷺ ، ولا شك حين يتكلم أمام النجاشي ابن عم المبعوث رحمة للعالمين وأقرب الناس إليه ، يجعل النجاشي أكثر اطمئناناً وثقة بما يعرض عن ابن عمه .

اختار جعفر رضي الله عنه للإجابة التي وجدها فرصة سانحة بين يدي النجاشي الأسلوب الأمثل في العرض من خلال الخطوات التالية :

(أ) وصف ما كان عليه أهل الجاهلية ، وركز على الصفات الذميمة التي لا تُنتزع إلا بنبوة .

(ب) عرض شخصية الرسول ﷺ في هذا المجتمع الآسن المليء بالرذائل .

(جـ) تحدث عن المبادئ العامة للدعوة أو عرض أخلاقيات هذا الدين التي تلتقي مع كل أخلاقيات دعوات الأنبياء ، نبذ عبادة الأوثان ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن

الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكون النجاشي وبطارقته موغلون في النصرانية فهم يدركون أن هذه رسالات **الأنبياء التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام** .

(د) فضح ما فعلته قريش بهم لأنهم رفضوا عبادة الحجارة وآمنوا بما نزل على محمد وتخلقوا بخلقه .

(هـ) أحسن الثناء على الملك بما هو أهله أنه لا يُظلم عنده أحد ، وأنه يقيم العدل في قومه .

(و) وأوضح أنهم اختاروه كهفاً من دون الناس فراراً من ظلم هؤلاء الذين يطالبون بهم . وبهذه الخطوات البينة الواضحة ، دحر بلاغة عمرو وفصاحته ، واستأثر بلب النجاشي وعقله ، وكذلك استأثر بلب وعقل البطارقة والقسيسين الحاضرين .

(ز) وعندما طلب الملك النجاشي شيئاً مما نُزِّل على محمد ، جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة ، والتأثير ، حتى بكى النجاشي وأساقفته وبلوا لحاهم ومصاحفهم من الدموع .

العهد المدني للدعوة

الفصل التاسع عشر

تنظيم المجتمع النبوي

أولاً : بناء المسجد :

(عن أنس قال : قدم النبي ﷺ المدينة ، فنزل أعلى المدينة في حي يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، فأقام النبي ﷺ أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بني النجار ، فجاؤوا متقلدي السيوف ، كأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه ، وملأ بني النجار حوله ، حتى ألقى بفناء أبي أيوب . وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم ، وإنه أمر

ببناء المسجد . فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال : ﴿ **يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا ؟** ﴾ قالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا من الله . قال أنس : فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين . وفيه خَرِبٌ وفيه نخل ، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، ثم بالخرب فسويت ، وبالنخل فقطعت . فصفوا النخل قِبلة المسجد ، وجعلوا عضاديته الحجارة ، وجعلوا ينقلون الصخر ، وهم يرتجزون ، والنبي ﷺ معهم وهو يقول :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر الأنصار والمهاجرة)[1]

لقد كانت الخطوة الأولى في المدينة ، بعد وصول الرسول ﷺ واستقراره ، وفي اليوم الأول الذي نزل فيه هو بناء المسجد النبوي . وهو عنوان هذه الأمة ، وهو الذي يمثل رمز انتصاراتها . لقد أمضوا في مكة ثلاثة عشر عاماً يعبدون الله على خوف ووجل . ويضطهدون إن أعلنوا شعائرهم ، ويؤذون إن صلوا وجهروا بصلاتهم ، وكان أول ركن تقوم دولة الإسلام عليه ، ومن أجله هو الصلاة ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾[1] .

﴿ **الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[٢] .

فكان قيام المسجد النبوي وإعلان التوحيد في المدينة ، هو إعلان قيام دولة الإسلام ، ورسول الله ﷺ يعقد هذا الأمر في دور بني النجار ، وبعيون الملأ منهم ، وفي ظلال سيوفهم . فالدولة الآن دولة الإسلام وهم حماتها ، واختيار رسول الله بني النجار ، هو اختيار عميق ، يحمل معنىً عميقاً كذلك ، فبنو النجار أخوال رسول الله ﷺ ، وهو في جوارهم ، والمسجد في أرضهم ، ولن يروم حماهم أحد .. وحيث يمكن أن يقع صراع في أي قبيلة بين مؤيد ومعارض . ففي بني النجار ، فلا .. لأنهم أهل رسول الله ﷺ ، وكما كان بنو هاشم وبنو المطلب في مكة ، فبنو النجار في المدينة ، ونقيبهم أسعد بن زرارة ، صاحب العقبات الثلاث ، والشاب الذي يتوقد قوة وحيوية ، وهو الذي خاض غمار المواجهة في المدينة حتى أرسى دعائم الإسلام فيها .

وشهد رسول الله ﷺ لبني النجار بالخيرية فقال : « **إن خير دور الأنصار دار بني النجار . ثم عبد الأشهل ، ثم دار بني الحارث ، ثم بني ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير** »[١] . وبلغ من إكرام الرسول ﷺ لهم أن كان نقيبهم بعد وفاة نقيبهم أسعد بن زرارة . فقد ذكر ابن إسحاق عن عاصم عن عمر بن قتادة أن بني النجار سألوا رسول الله ﷺ أن يقيم لهم نقيباً بعد أسعد بن زرارة ، فقال : « **أنتم أخوالي وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم** » وكره أن يخص بها بعضهم دون بعض ، فكان من فضل بني النجار الذي يعتدون به على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم)[٢] .

وسيبقى المسجد بالنسبة للمسلمين رمز انتصاراتهم ، لا على أنه دار عبادة فحسب ، بل هو دار حياة المسلم ، وحين نرى المساجد الضخمة اليوم تملأ الآفاق في كل أصقاع الأرض ، ونرى زينتها وزخرفها وتفوقها كثيراً في البناء ، لكننا لا نجد في داخلها تلك الحيوية التي تمثل انطلاقة الإسلام ، فالمسجد يحكم البيت ، ويحكم الشارع ، ويحكم الحاكم ، ويحكم الحياة .. لكنه تحوَّل في واقعنا إلى بيت للصلاة فقط ، وفي بعض البلدان هو بيت الخوف والرعب ، فالشاب الذي يدخله معرَّضٌ للفتنة والابتلاء والموت ، نذكر هذه المساجد أمام القلعة الأولى للإسلام في المدينة ، والتي تحركت منها الكتائب التي حكمت ثلثي الأرض آنذاك .. هذه القلعة نستمع إلى وصف دقيق لها :

(وأسسوا المسجد ، فجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع ، وفي هذين الجانبين مثل ذلك فهو مربع .. وجعلوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللّبن .. وجعل له ثلاثة أبواب .. وجعل طول الجدار بسطة ، وعُمُدَه الجذوع ، وسقفة جريداً ، فقيل له : ألا تسقفه ؟ فقال : « **عريش كعريش موسى خشيبات وثمام ، الشأن أعجل من ذلك** »)[1] .

ثانياً : المؤاخـــاة :

١ ــ (عن عاصم قال : قلت لأنس بن مالك : أبلغك أن النبي ﷺ قال : « **لا حلف في الإسلام** » فقال : قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري)[٢] .

٢ ــ (وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا ــ ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل ــ « **تآخوا في الله أخوين أخوين** » ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ، فقال : « **هذا أخي** » فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذي ليس خطير ولا نظير في العباد . وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله

ﷺ وعـــم رسول الله ﷺ ، وزيـــد بن حارثـــة مولى رسول الله ﷺ أخويـن . وإليـه أوصى حمزة يوم أحـد حين حضره القتـــال إن حدث به حادث الموت ، وجعفـر بن أبي طالب ذو الجنـاحين ، ومعـاذ بن جبـل أخوين .

وقال ابـن هشام : وكان جعفـر بن أبي طالب يومئـذ غائبـاً بأرض الحبشة .

قال ابـن إسحـاق : وكان أبـو بكـر الصديـق وخارجـــة بن زهير أخوين ، وعمر بن الخطـاب وعتبـان بن مالك أخويـن ، وأبـو عبيـدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين ، وعبد الـرحمن بن عوف وسعـد بن الربيـع أخوين ، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة أخويـن ،

وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين ، وطلحة بن عبيد الله وكـعب بن مالك أخويـن ، وسعيـد بن زيـد وأبـيّ بن كعب أخويـن ، ومصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري أخوين ، وأبو حذيفة بن عتبـة وعبـاد بن بشر أخوين ، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخويـن ، وأبـو ذر والمنـذر بن عمرو أخوين ، وحاطب بن بلتعـة وعـويم بن ساعـدة أخويـن ، وسلمـان الفارسي وأبو الـدرداء أخويـن ، وبـلال مولى أبي بكـر وأبـو رويحة الخثعمي أخوين ..)[1] .

٣ ــ (وقال عبد الرحمن بن عوف آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيـع لما قدمنا المدينة)[2] .

٤ ـــ (وعن أنس رضي الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك دلني على السوق فربح شيئاً من أَقِط[١] وسمن ، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر[٢] من صفرة . فقال النبي ﷺ : « **مَهيَمْ**[٣] **يا عبد الرحمن** » قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال : « **فما سقت فيها** » فقال : وزن نواة من ذهب . فقال النبي ﷺ : « **أولم ولو بشاة** »)[٤] .

وفي رواية الإمام أحمد : (... فقال له سعد : أي أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان فانظر أيها أعجب إليك حتى أطلِّقها . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق . فدلوه . فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أَقِطٍ وسمن ثم ما لبث ما شاء أن يلبث فجاء وعليه ودك[٥] زعفران ، فقال رسول الله ﷺ : « **مَهْيَمْ ؟** » فقال : يا رسول الله تزوجت امرأة . قال : « **ما أصدقتها ؟** » قال : وزن نواة من ذهب .

قال : « **أولم ولو بشاة** » قال عبد الرحمن : فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة)[1] .

٥ ــ (وعن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « **لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم** ») .

٦ ــ (وعن أبي هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ، قال : « **لا** » قالوا : أفتكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا)[2] .

(وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رسول الله ﷺ للأنصار : « **إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم** » فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ : « **أو غير ذلك ؟** » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « **هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر** » قالوا : نعم)[3] .

٧ ــ (وعن موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبيه قال : لما قدم رسول الله ﷺ

المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض ، وآخى بين المهاجرين والأنصار . آخى بينهم على الحق والمواساة ، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام ، وكانوا تسعين رجلاً ؛ خمسة وأربعون من المهاجرين ، وخمسة وأربعون من الأنصار . ويقال كانوا مائة : خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار ، وكان ذلك قبل بدر . فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** ﴾ فنسخت الآية ما كان قبلها ، وانقطعت المؤاخاة في الميراث . ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه)[1] .

* * *

١ ــ لم يشهد تاريخ البشرية مثل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في العهد الأول ، فلم يتم الأمر من خلال القمع والإرهاب ، ولا من خلال الاستيلاء على السلطة ، والتأميم للأموال المنقولة وغير المنقولة ــ كما يعبر عن ذلك المعاصرون اليوم ــ لقد كان تشريع المؤاخاة الذي تم بإشراف الرسول ﷺ ، وبأقصى ما يملك المتآخون من رغبة واندفاع للتنفيذ . هي النموذج الحي للحكم على مستوى الدعاة في الأرض اليوم ومدى قدرتهم

على أن تتمثل فيهم هذه الروح الأخوية .

٢ ــ لقد أشرف رسول الله ﷺ على هذه المؤاخاة بنفسه ، وقال : « **تآخوا في الله أخوين أخوين** » ولم يكن الأمر وعظاً عاماً ، وكلاماً جميلاً تُبُحُّ الأصوات فيه ، ولا ينتج عنه إلا الصدقة النادرة والمرتبطة بالمن والأذى . إنما كانت خطوة عملية حية ، قام رسول الله ﷺ بتنفيذها وتحديد التآخي المباشر بين كل أخ مهاجر وأخ أنصاري .

ولا بد أن يتعلم الدعاة من هذا الدرس ضرورة المعايشة العملية لقراراتهم ، والسهر المباشر عليها ، دون أن يكلوا تنفيذها حسب التسلسل ، وينتهي الأمر بموت القرار في مهده .

٣ــ كان العرض القادم عند الأنصار ، أن يتقاسموا الثروة بينهم وبين إخوانهم المهاجرين وهم الذين طلبوا ذلك ، وقد ترك المهاجرون الأولون رضي الله عنهم أموالهم ، وديارهم في سبيل الله ، وجاؤوا بدينهم إلى المدينة ليشهدوا ميلاد دولة الإسلام ، فاندفع إخوانهم الأنصار يعرضون عليهم أموالهم وأراضيهم ليكونوا فيها سواء .

وارتفع بعضهم فوق المستوى ، فهو يعرض خير أرضه ، وخير أهله ، ويدع الاختيار لأخيه عبد الرحمن بن عوف ، وشهد لهم القرآن بذلك : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

وهل يحتاجون إلى ثناء من الناس بعد هذه الشهادة من خالقهم

رب السموات والأرض .

إن الإسلام قد فرض الزكاة على المسلم بنسبة تتناسب مع نفسية البشر عامة ، واستعدادها للإتفاق ، وكانت الزكاة تتراوح بين ربع العشر والعشر ، وكلما كان الجهد البشري أكثر كلما انخفضت النسبة ، وهي التي لا يُقبل المسلم بأقل منها . بينما نجد الآن هذه النماذج الرائعة التي تقبل وتعرض أن تقدم خمسين بالمائة من ممتلكاتها عن طيب خاطر لإخوانها ، وليست صورة فردية نادرة ، إنما هي سمة عامة في هذا المجتمع الإسلامي الوليد ، الذي لن يتكرر بعد في التاريخ .

٤ ــ ويعرض رسول الله ﷺ حلاً يحفظ هذا المال بيد الأنصار ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « **تكفونهم المؤونة ، وتقاسمونهم الثمرة** » وكانت رغبة رسول الله ﷺ أن لا يغمس المهاجرون الآن في الزراعة والعمل ، بل يبقوا على أهبة الاستعداد للمواجهة والجهاد والغزو . فهم الرصيد الذي يتحرك بهم لعملياته العسكرية خارج المدينة[1]، ويريدهم أن يتفرغوا لذلك ، وقال إخوانهم الأنصار : سمعنا وأطعنا . وقرت عين إخوانهم المهاجرين بهم حتى يقولوا لرسول ﷺ : (لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله) .

ورضي الأنصاري أن يعمل ، وتكون ثمرة عمله موزعة بينه وبين أخيه المهاجر .

٥ ــ ولكن المهاجرين قبلوا هذا الأمر ، وفي مرحلة مؤقتة ، ريثما يتعرفون على سوق المدينة ومداخل ومسارب التجارة فيها ، والعمل التجاري بطبيعته

عمل مؤقت ، لا يتعارض مع التفرغ للجهاد . فالمسلم عندما يدعوه الداعي إلى المعركة لن يتعطل عمله ، كما هو الحال بالنسبة للمزارع الذي يُطلب منه العمل الدؤوب في مراحل معينة ، وإلا خسر موسمه كله . وكان عبد الرحمن بن عوف ، نموذج الحيوية الحركية عند المهاجرين ، حيث استطاع خلال أيام قلائل ، أن يكسب ، ويتطيب ، ويتزوج .. وكما يقول عن نفسه : ولقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً أو فضة .

٦ ــ وحين يستعرض الباحث هذا الأفق الوضيىء العظيم لمعالم المجتمع المدني من خلال المؤاخاة ، وما رافقها من حب وبذل وتضحية وإيثار . وما يُرى في عالم الأرض اليوم ، ومجتمعات الأرض ، وما يُشهد فيه من نتن وعفن وركام .. يعرف عظمة هذا الدين في البناء ، وما تحمله نظم الأرض من شيوعية واشتراكية ورآسمالية من هبوط . ويعرف إكمال الله تعالى نعمته لهذه الأمة بهذا الدين .

إن المجتمعات البشرية اليوم التي تنبح بهذه المبادىء ، وتقدمها للناس على أنها الحق والأمل والرجاء ؛ تقوم على قتل الخير في نفوس الناس . فالتسلط والقوة والقهر والإذلال للمالكين ، وكل مالك مستغل ، وجشع ومتسلط . وبالتصفية الدموية يُنزع تسلطه ، وفي صراع الطبقات ، تنتزع ملكيته ، حتى ولو كان يملك قوته الضروري ، يجب أن يتحول كله إلى عبيد يحرم عليهم التملك ، والطبقة الحاكمة هي التي تمثل الخير والحق ، وتتصرف وتملك كل شيء في الواقع العملي ، دكتاتورية البروليتاريا ، كما يحلو لهم أن يسموها ، وقد تختلف هذه النظم قليلاً أو كثيراً ، بحيث يمكن أن تفسح في الصور الأخرى المجال لامتصاص دماء

المعوَزين ، والتحكم بأقواتهم وحياتهم وجهدهم ، كي تنمو الثروة في أيديهم ، ومهمة القانون أن يبرر هذا الظلم والبغي والإجرام ، فهم الذين يملكون التشريع كما يشاؤون .

٧ ــ ولكني أعود فأحذر من صورة أخرى لا تقل خطورة عن ما سبق ، ولا بد أن تأتي قرينة لها ، هذه الصورة ، هي أن يدخل في روع الدعاة إلى الله اليوم ، أنه مجرد أن تُتاح لهم فرصة الحكم والسلطة ، ستعود صورة المجتمع الأول ماثلة في صفوفهم، وأنهم قد بلغوا في التربية والإعداد والتضحية والبذل شأو هؤلاء المهاجرين والأنصار . وكل الأمر متوقف على أن توسد لهم السلطة ، ليولد فيهم أبو بكر وعمر من جديد ، وأخص بالذكر الشيخين ــ رضي الله عنهما ــ لأن الغرور يصل بالدعاة أحياناً

إلى حد الاستعـــلاء عن عثمان رضي الله عنـــه وأنـــه قد زلَّ عن المنهج الإسلامـي . أمـا هم ففـي مصاف الصديـق والفـاروق . وأن الأمـر انتهى عندهم ولم يعد أمامهـم إلا أن يعملـوا لإقامـة دولـة الإسلام . بينما هم في واقعهم العملي والتربوي ، أقرب وألصق بهذه المجتمعـات الأرضيـة القـاصرة التـي ذكرناهـا ، وفيهم الذيـن يصطرعـون على المال ، ويصطرعـــون على الشهـرة ، ويصطرعـون على السلطـة ، ويضعـون الغـلاف الإسلامـي على ذلك . وقد يوجد بينهم من يتهم في أمانته ، ويتهم في دينه .

يجب أن لا ننسى أن الأمر ليس أماني وتمنيـات ، وقـد تكـون هذه المجتمعـات الأرضيـة بما ملـــكت من خبرة وصراع طويـــل قد وصلت إلى مستوىً من الأمن والعدل والرفاه يعجز دعاة الإسلام عن الـوصول إليـه لو حكموا في هذه الأرض نتيجة فقدان هذه الخبرات ، وأنـا شد الدعـاة إلى الله أن يعـودوا دائمـاً إلى ذاتهم ، ويراجعـوا سلوكهـم ، ويتفحصوا مسيرتهم ليصححوا الخطأ ، ويرتفعوا بمستـوى تربـيتهم على خط الإسلام الصاعـد ، وعلى طريق القمة الإسلامـي الشامخ . إذ قد يكونـون في السفـح ، ولـيس الذي يرى القمة يعني أنـه وصل إليها ، ولـيس معرفتنـا النظريـة بمجتمعنـا الإسلامي الأول ، أننا صرنا أولئك الجيـل ، فالطريـق طويـل طويـل وشاق وشاق حتى نتابع الأمر صعداً فيه .

ملاحظة : تأسيس الدولة بالمدينة والمشكلات التي واجهها النبي بالمدينة (لم أجدها بالكتاب)!

الفصل الثاني والعشرون

غـزوة بـــدر

أولاً : أسباب الغزوة وأهدافها :

لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال : « **هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها** »[1] .

ويقول الصالحي في السيرة الشامية : (والسبب في خروج النبي ﷺ أنه سمع أن أبا سفيان بن جرب مقبل من الشام في ألف بعير لقريش فيها أموال عظام ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في البعير . فيقال : إن فيها خمسين ألف دينار ، ويقال أقل ، وفيها سبعون رجلاً راكباً كما ذكر ابن عقبة وابن عائذ وقال ابن إسحاق ثلاثون أو أربعون .. وهي التي خرج لها حتى بلغ العشيرة فوجدها قد مضت . وندب المسلمين للخروج معه وقال : « **هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله أن يغنمكوهما** » فانتدب الناس فخف بعضهم ، وثقل بعض . وتخلَّف عنه بشر كثير ، وكان من تخلَّف لم يلم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ، ولم يحتفل لها

رسول الله ﷺ احتفالاً بليغاً . فقال : من كان ظهره حاضراً فليركب معنا .. وحمل سعد بن عبادة رضي الله عنه عشرين جملاً ، وبعث رسول الله ﷺ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام ، يتحسسان خبر العير ، فبلغا أرض الخوار . فنزلا على كثيِّر بن مالك الجهني رضي الله عنه فأجارهما ، وأنزلهما وكتم عليهما حتى مرَّت العير ثم خرجا وخرج معهما كُثيِّر خفيراً حتى أوردهما ذا المروة ، فقدما ليخبروا رسول الله ﷺ فوجداه قد خرج ..

وأدرك أبا سفيان رجل من جُذَام بالزرقاء من ناحية معان ، فأخبره أن رسول الله ﷺ قد كان عرض لعيره في بدايته ، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجوع العير .. فخرج أبو سفيان ومن معه خائفين للرصد ، ولما دنا أبو سفيان من الحجاز جعل يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : أن محمداً قد استنفر لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يجدع بعيره ، ويحوِّل رحله ، ويشق قميصه من قبله ودبره إذا دخل مكة ، ويأتي قريشاً ويستنصرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً ﷺ قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة ، وفعل ما أمره به أبو سفيان)[1] .

ثانياً : الاستشارة التي غيرت وجه المعركة :

١ ــ (... وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس ،

وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر ابن الخطاب فقال وأحسن .. ثم قال رسول الله ﷺ : « **أشيروا علي أيها الناس** » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه العقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره ألا ممن دهمه من المدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : « **أجل** » قال : فقد آمنا بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لِمَا

أردت ، فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : ﴿ **سيروا وابشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم** ﴾[1] .

٢ ــ وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض فقال سعد بن عبادة : إيانا يريد رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار أخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادنا إلى برك الغماد لفعلنا)[1] .

٣ ــ وروى ابن مردويه أيضاً عن طريق محمد بن عمر بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : ﴿ **كيف ترون ؟** ﴾ فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم بكذا وكذا . قال : ثم خطب الناس فقال : ﴿ **كيف ترون ؟** ﴾ فقال عمر مثل قول أبي بكر . ثم خطب الناس فقال : ﴿ **كيف ترون ؟** ﴾ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد ؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها

علم ، ولئن سرت برك الغماد من ذي يمن لنسير معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ لكن اذهب أنت وربك فقاتلا ! إنا معكما متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله لك غيره ، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ الآيات .. وذكر الأموي في مغازيه وزاد بعد قوله ، وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت ، وما أخذت كان أحب إلينا مما تركت ، وما آمرت فامرنا تبع لامرك ، فوالله لو سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك)[1] .

* * *

لقد تطور أمر الخروج إلى بدر من غنيمة القافلة إلى مواجهة قريش ، وقد وصف القرآن الكريم فريقاً من المؤمنين ببدر أنهم ابتداء ، لم يكونوا يرغبون في المواجهة كما قال تعالى ﴿ ... **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك بالحق بعد ماتبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾[2] وقد رأينا بعض الروايات التي تؤكد هذا المعنى .

كما أن نفسية الجيش كله كانت ترغب بالقافلة دون المواجهة ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . .** ﴾[3] لكن الإرادة الربانية كانت حتمية اللقاء والمواجهة، وبقي التركيز

النبوي على الأنصار ليعلنوا موقفهم ، فكانت الاستشارة التي تعددت أكثر من مرة ، وكانت تهدف الأنصار مباشرة ، فكان جواب السعدين هو الذي غيَّر الجو كله ، وعبأ النفوس للقتال ، وسُرَّ به عليه الصلاة والسلام حتى وعد المسلمين بالنصر ، وكأنه ينظر إلى مصارع القوم .

ثالثاً : استقصاء المعلومات عن العدو :

١ ــ ثم نزل قريباً من بدر فركب هو ورجل من أصحابه (قال ابن هشام : الرجل هو أبو بكر الصديق) قال ابن إسحاق : كما حدثني محمد بن يحيى بن حبان ، حتى وقف على رجل من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما . فقال رسول الله ﷺ : « **إذا أخبرتنا أخبرناك** » قال : أوذاك بذاك ؟ قال : « **نعم** » قال الشيخ : فإنه قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا في يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله ﷺ ، وبلغني أن قريشاً خرجوا في يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به قريش .. فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نحن من ماء** » ثم انصرف عنه ، فقال الشيخ : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟)[1] .

٢ ــ ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء ببدر يلتمسون الخبر له ، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، وأصحاب العير فضربوهما . فلما أذلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان ونحن من العير . فتركوهما وركع رسول الله ﷺ ، وسجد سجدتيه ثم سلم ، وقال : « **إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش .. أخبراني عن قريش ؟** » قالا : هم والله وراء هذا الكثيب

الذي ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما رسول الله ﷺ : « **كم القوم ؟** » قالا : كثير . قال : « **ما عدتهم ؟** » قالا : لا ندري . قال : « **كم ينحرون كل يوم ؟** » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال رسول الله ﷺ : « **القوم فيما بين التسعمائة والألف** » ثم قال لهما : « **فمن فيهم من أشراف قريش ؟** » قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن خزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمر بن عبدود ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس وقال : « **هذه مكة قد ألقت إليكم اليوم أفلاذ أكبادها** »)[1] .

٣ ــ وكان بسبس بن عمرو ، وعدي بن أبي الزعباء ، قد مضيا حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه ، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء ، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جوار الحاضر وهما تتلازمان على الماء والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك . قال مجدي : صدقت . ثم خلَّص بينهما ، وسمع بذلك عدي وبسبس ، فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا[2] .

* * *

لقد تم استقصاء المعلومات ، على أربعة مراحل :

١ ــ الأولى : عندما بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان أخبار العير قبل خروجها من المدينة بعشر ليال وشهدا مرور العير من أرض جهينة .

٢ ــ والمرحلة الثانية : حين بعث عدي بن الزعباء ، وبسبس بن عمرو إلى ماء بدر ، واستطاعا أن يحددا وقت وصول العير إلى بدر .

٣ ــ والمرحلة الثالثة : حين أصبحت العير أمراً ثانوياً أمام خروج قريش ، حيث خرج عليه الصلاة والسلام بنفسه ومعه الصديق أبو بكر ، وحددا الموقع الذي وصل إليه جيش قريش وذلك من خلال لقائهما مع الشيخ الأعرابي .

٤ ــ والمرحلة الرابعة : حين بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه والنفر الذين معه فاستاقا الغلامين من قريش ، وعرف منهما عدد جيش قريش وأخطر الشخصيات التي حضرت مع قريش والتي عبر عنا عليه الصلاة والسلام بقوله : **« هذه قريش قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها .**

وبذلك أصبحت الصورة كاملة لدى الرسول ﷺ عن العدو ، وموقعه ، وعدده ، وشخصياته .

رابعاً : من أحداث الغزوة :

١ ــ (كانت غداة يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة)[١] .

٢ ــ عن البراء قال : (كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولما يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة)[٢] .

٣ ــ (سمعت ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك ومن خلفك ، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه)[٣] .

٤ ــ عن ابن عباس قال : (قال النبي ﷺ يوم بدر : « **اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد** » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك ، فخرج وهو يقول : « **سيهزم الجمع ويولون الدبر ..** »)[٤] .

٥ ــ عن ابن عباس (أن النبي ﷺ قال يوم بدر : « **هذا جبريل آخذ برأس فرس عليه أداة الحرب** »)[٥] .

٦ ــ عن ابن عباس قال : (حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه : ﴿ **اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم آتني ما وعدتني . اللهم إنك إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض** ﴾ فما زال يهتف بربه ، ماداً يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فآتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا رسول الله كذاك[١] مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ فأمده الله بالملائكة . قال أبو زميل : فحدثني ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثَر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضرَّ ذلك أجمع . فجاء الأنصاري فحدَّث ذاك رسول الله ﷺ فقال : ﴿ **صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة** ﴾ فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين)[٢] .

٧ ــ عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده قال : (**بينا أنا واقف في الصف يوم بدر ، نظرت عن يميني وشمالي ، فإذا أنا**

منهما فغمزني أحدهما فقال : يا عم هل تعرف أباجهل ؟ قلت : نعم ، ما حاجتك يابن أخي ؟ قال : أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا[٢] فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس . فقلت : ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني فابتدراه بسيفيهما ، فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه ، قال : ﴿ **أيكما قتله ؟** ﴾ فقال كل واحد منهما أنا قتلته ، فقال : ﴿ **هل مسحتما سيفيكما ؟** ﴾ قالا : لا . فنظر في السيف فقال : ﴿ **كلاكما قتله ، سلبه لمعاذ بن عمرو ابن الجموح** ﴾ وكانا معاذ بن عفراء ، ومعاذ بن بن الجموح)[٣] .

٨ ــ (عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقُذِفوا في طوي[٤] من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم ، أقام بالعَرصَة ثلاث ليال : فلما كان ببدر في اليوم الثالث ، أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلها ثم مشى ، واتَّبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الرَّكي[٥] فجعل يناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، ﴿ **يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟! فإنا قد وجدنا ما وعدنا**

ربنا حقاً ؟ » قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبي ﷺ : « **والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم** » .

قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم له توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً)[1] .

٩ ــ وعن أبي أيوب الأنصاري (قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : « **إني أخبرت ونحن بالمدينة عن عير أبي سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذا العير لعل الله يغنمناها ؟** » قلنا : نعم . فخرج وخرجنا معه ، فلما سرنا يوماً أو يومين ، قال لنا : « **ما ترون في القوم فإنهم أخبروا بمخرجكم ؟** » فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكن أردنا العير . ثم قال : « **ما ترون في القوم ؟** » فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ فتمنينا معشر الأنصار أنا قلنا كما قال المقداد وأحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم فأنزل الله عز وجل على رسول ﷺ : ﴿ ... **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك بالحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهو ينظرون** ﴾ ثم أنزل الله عز وجل : ﴿ **إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ..** ﴾ وقال : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى**

الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾
والشوكة : القوم ، وغير ذات الشوكة : العير . فلما وعد الله إحدى الطائفتين إما القوم وإما العير طابت أنفسنا .. ثم إن رسول الله ﷺ بعث ينظر ما قِبَل القوم فقال : رأيت سواداً ولا أدري ، فقال رسول الله ﷺ : « **هم هم هلموا أن نتعادَّ** » فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً . وأخبرنا رسول الله ﷺ بعدتنا ، فسرَّه ذلك وقال : عدة أصحاب طالوت . ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا . فبدرت منا بادرة أمام الصف ، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال : « **معي معي** » ثم إن رسول الله ﷺ قال : « **اللهم إني أنشدك وعدك** » فقال ابن رواحة : يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك ورسول الله ﷺ أعظم من أن نشير عليه . والله أعظم من أن نُنشده وعده . فقال : « **يابن رواحة لأنشِدَنَّ الله وعده ، فإن الله لا يُخلف وعده** » فأخذ قبضة من التراب

فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم فانهزموا . فأنـزل الله عز وجـل : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** .. ﴾ فقتلنا وأسرنـا . فقـال عمـر بن الخطـــــاب : يا رسول الله ما أرى أن يكــــون لك أسرى ، فإنما نحن داعون مؤلفون فقلنا معشر الأنصار : إنما يحمـل عمـر على ما قال حسدٌ لنا . فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال : « **ادعـو لي عمـر** » فدعـي له فقال : « **إن الله عز وجل قد أنزل علي : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخـن في الأرض تريـدون عرض الدنيـا والله يريـد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾**[١] » [٢] .

١٠ــ وعن علي[١] قال : (لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها[٢] فأصابنا بها وعك[٣]،فكان النبي ﷺ يتخبر عن بدر ، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر ، وبدر بئر فسَبقنا المشركون إليها ، فوجدنا فيها رجلين منهم رجلاً من قريش ، ومولى لعقبة ابن أبي معيط ، فأما القرشي فانفلت ، وأما مولى عقبة فأخذناه ، فجعلنا نقول له : كم القوم ؟ فيقول : هم والله كثير عددهم شديد بأسهم ، فجهد رسول الله ﷺ أن يخبره فأبى . ثم إن النبي ﷺ سأله : « **كم ينحرون من الجزر ؟** » فقال : عشر لكل يوم . فقال رسول الله ﷺ : « **القوم ألف كل جزر لمائة ونيِّفها** » ثم إنه أصابنا طش[٤] من مطر فانطلقنا تحت الشجر والحجف[٥] نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول : « **اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد** » قال : فلما أن تطلَّع الفجر نادى : « **الصلاة عباد الله** » . فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحضَّ على القتال ثم قال : « **إن جمع قريش تحت هذه الضلع الحمراء من الجبل** » . فلما دنا القوم وصافناهم إذا رجل منهم على جمل أحمر يسير في القوم فقال رسول الله ﷺ : « **يا علي ناد حمزة** » وكان أقربهم من المشركين من صاحب الجمل الأحمر ، وماذا يقول لهم . ثم قال رسول الله ﷺ :

« إن يكن في القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر » قال : هو عتبة بن ربيعة وهو ينهى عن القتال ويقول لهم : يا قوم إني أرى قوماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير . يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا : جبن عتبة بن ربيعة ، ولقد علمتم أني لست بأجبنكم ، فسمع ذلك أبو جهل فقال : أنت تقول ذلك ، والله لو غيرك يقول لأعضضته ، قد ملأت رئتك جوفك رعباً . فقال عتبة : إياي تعني يا مصفر استه . ستعلم اليوم أيُّنا الجبان .

قال : فبرز وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية فقالوا : من يبارز . فخرج فتية من الأنصار ستة ، فقال عتبة : لا نريد هؤلاء ، ولكن من يبارزنا من بني عمنا من بني المطلب فقال رسول الله ﷺ : **« قم يا علي ، وقم يا حمزة ، وقم يا عبيدة بن الحارث بن المطلب »** فقتل الله شيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة . وجرح عبيدة ، فقتلنا منهم سبعين ، وأسرنا سبعين . فجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً فقال العباس : يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني . أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم . فقال الأنصاري : أنا أسرته يا رسول الله . قال : **« اسكت فقد أيَّدك الله بملك كريم »** قال علي : فأسرنا من بني المطلب العباس وعقيلاً ونوفل بن الحارث)[1] .

* * *

١ ــ كانت كما سماها القرآن الكريم : **يوم الفرقان** .

يقول ابن إسحاق في تفسير ما نزل في هذه الغزوة من سورة الأنفال : ﴿ .. **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير** ﴾ أي يوم فرقت فيه بين الحق والباطل بقدرتي يوم التقى الجمعان منكم ومنهم ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا** ﴾ من الوادي ﴿ **وهم بالعدوة القصوى** ﴾ من الوادي إلى مكة ﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ أي عير أبي سفيان التي خرجتم لتأخذوها وخرجوا ليمنعوها على غير ميعاد منكم ولا منهم ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد** ﴾ أي ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ثم بلغهم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿ **ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** ﴾ أي ليقضي ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الكفر وأهله من غير بلاء منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه ثم قال ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم** ﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك)[1] .

٢ ــ ويحدثنا سيد رحمه الله تعالى عن هذا الفرقان فيقول :

(أ) (... وكانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية : عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، والإسلام بوصفه تصوراً جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنساني ، ونظاماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدولة ، بوصفه

إعلانا عاما لتحرير الإنسان في الارض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكميته ، الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد ، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه ، تتمثل في شعائر تعبدية لله ، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم ، ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، في واقع الحياة ، وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولاً ، ثم في حياة البشرية أخيراً .. وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله .

(ب) وكانت فرقاناً بين عهدين من تاريخ البشرية . فالبشرية بمجموعها قبل النظام الإسلامي هي غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام . هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام ، وهذا النظام الجديد الذي انبثق منه هذا التصور ، وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلاداً جديداً للإنسان . وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها ،

ويقوم عليها النظام الاجتماعي ، والتشريع القانوني على السواء ، هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر ، وتوكيد وجود المجتمع الجديد ، إنما صار ـــ شيئاً فشيئاً ـــ ملكاً للبشرية كلها ، تأثرت به سواءً في دار الإسلام أو خارجها ، سواءً بصداقة الإسلام أم بعداوته !

والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام ، ويقضوا عليه في ربوعه ، قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذين جاؤوا ليحطموه ، وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الأقطاعي الذي كان سائداً عندهم . بعدما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعي الإسلامي !

والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه ـــ بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ـــ قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية في النهاية ، وحملوها لينشروها في رقعة من الأرض جديدة ، وليقيموا عليها خلافةً ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين في أوربا .. وعلى أية حال فالتاريخ البشري كله ـــ منذ وقعة بدر ـــ متأثر بهذا الفرقان في أرض الإسلام ، أو في الأرض التي تناهض الإسلام على السواء .

(جـ) وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، فجرت ـــ وكل عوامل النصر الظاهرية ـــ في صف المشركين ، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غرَّ هؤلاء دينهم .. وقد أراد الله أن تجري المعركة على هذا النحو ، وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة ـــ لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ، وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ، وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان ..)[1] .

٣ ــ وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، على مستوى الكون كله ؛ فالباطل يحشد جنده كلهم ، وعلى رأسه إبليس الذي جاء بشخصه ليحضر المعركة . ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ..** ﴾ قال ابن إسحاق :

وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : (لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر ، فكاد ذلك يثنيهم ، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المد لجي . وكان من أشراف بني كنانة . فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه . فخرجوا سراعاً)[١] .

وليؤكد لهم هذا الموقف فقد حضر معهم المعركة ، كما فعل يوم الهجرة (ولما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين أشفق أن يخلص القتل إليه ، فتشبث به الحارث بن هشام ، وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى بنفسه في البحر فرفع يديه فقال : اللهم إني أسالك نظرتك إياي ، وخاف أن يخلص إليه القتل)[٢] .

وفرعون هذه الأمة يقول :

(يا معشر الناس لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم فإنه كان على

ميعاد مع محمد ، لا يهولنكم قتل عتبة وشيبة ابني ربيعة فإنهم قد عجلوا . فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال ، فلا ألفين رجلاً قتل رجلاً منهم ، ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ، ورغبتهم عن اللات والعزى)[1] .

بينما نلحظ في الطرف الآخر أن الله تعالى هو الذي يقود المعركة وما عرف تاريخ الأرض معركة يشارك فيها الملائكة بالقتل مثل بدر . ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾[2] .

ومعركة على رأسها إبليس وأبو جهل من طرف ، وجبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام من طرف آخر هل يمكن أن يكون في الوجود كله أخطر منها ؟

ومن أجل هذا قيل أن أفخر بيت قالته العرب هو هذا البيت :

وبيوم بدر إذ ترد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد[3]

والله تعالى شأنه يقول : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم** ﴾[1] .

ولم يشارك جبريل فقط في المعركة بل شارك سادات الملائكة معه : (فعن علي بن أبي طالب قال : كنت على بئر ، فكنت يوم بدر أميح وأمتح منه فجاءت ريح شديدة ثم جاءت ريح شديدة فلم أر ريحاً أشد منها إلا التي كانت قبلها ثم جاءت ريح شديدة . فكانت الأولى ميكائيل في ألف من الملائكة عن يمين النبي ﷺ ، والثانية إسرافيل في ألف من الملائكة عن يسار النبي ﷺ ، والثالثة جبريل في ألف من الملائكة ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكنت عن يساره ، فلما هزم الكفار حملني رسول الله ﷺ على فرسه ، فلما استويت عليه حمل بي فصرت على عنقه (عنق الفرس) فدعوت الله فثبتني عليه ، فطعنت برمحي حتى بلغ الدم إبطي)[2] .

وهذا منطوق الآية القرآنية : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله**

العزيز الحكيم ﴾[1] .

وتبدو في ما كان يريد الباطل أن يصل إليه : **« اللهم أن تهلك هذه العصابة فإن شئت لا تعبد في الأرض »** .

(والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ونطعم الطعام ، ونُسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا)[2] .

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم احنِهْم الغداة »)[3] .

وأبو جهل فرعون الأمة يزعم أنه يمثل الحق ، ويستفتح بالله أن ينصره على محمد ﷺ : (اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف فأحْنِه الغداة)[4] .

وعندما عُرِض المدد على قريش من خُفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري ، فأرسلوا إليه (أن وصلتك رحم فقد قضيت الذي عليك فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ، فما لأحد بالله من طاقة)[5] .

واستجيب دعاء فرعون الأمة ، فكانت الدائرة عليه : ﴿**إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين** ﴾[1] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (أدركت أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً ، فقلت : أي عدو الله قد أخزاك الله تعالى . قال : وبم أخزاني وهل أعمد من رجل قتلتموه ، ومعي سيف لي فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء ، ومعه سيف له جيد ، فضربت يده فوقع السيف من يده ، فأخذته ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « **آلله الذي لا إله إلا هو** » قلت : آلله الذي لا إله إلا هو . قال : « **انطلق فاستثبت** » فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر ، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك ، فأخبرته . فقال رسول الله ﷺ : « **انطلق** » فانطلقت معه ، فأريته . فلما وقف عليه ﷺ قال : « **هذا فرعون هذه الأمة** »)[2] .

وصدق أبو جهل وهو كذوب .. فما لأحد بالله من طاقة .

وهكذا كانت نهاية الطرف الأول إبليس يفر إلى البحر خوفاً ورعباً ويسأل الله النُظرة وأبو جهل فرعون هذه الأمة يقتله غلامان من الأنصار ، ويقطع عنقه رويعي الغنم عبد الله بن مسعود .

سادساً : آثارها :

ففي عالم الأرض العربية ، نلحظ آثارها بالنسبة للدعوة ولقريش ، ولموقف المسلمين بالمدينة ولليهود .

(أ) أما أثرها بالنسبة للدعوة فقد انضمت أعداد جديدة للإسلام في المدينة وبعض شخصيات مكة . وحتى بدر فقد كان عبد الله بن أبي يقود معسكر الكفار في المدينة ، أما بعد نصر بدر ، فقد اتجه إلى الإسلام أعداد من المنافقين أسلموا وحسن إسلامهم ، وذاك عمير بن وهب شيطان قريش يدخل الإسلام ، ويمضي إلى مكة ليعلن إسلامه على الملأ ، وذلك أبو عزيز بن عمير ، صاحب لواء المشركين يدخل الإسلام وقد بهره خلق المسلمين في تعاملهم معه . (والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر كما نقله الأئمة عن القاضي أبي الطيب الطبري والوليد بن الوليد بن المغيرة افتكه أخواه هشام وخالد ، فلما افتدي أسلم . فعاتبوه في ذلك فقال : كرهت أن يظن بي أني جزعت من الأسر ولما أسلم حبسه أخواله)[1] .

(ب) وأثرها بالنسبة لقريش فقد هُشمت كبرياؤها وقتل جُلُّ قياداتها ، وخيرة أبنائها وشبابها ، وفاتها المركز الضخم الذي كانت تطمح إليه بين العرب ، وبدت هذه الآثار فيما كان يريد الباطل أن يصل إليه .

وقد كبت الباطل أيما كبت وحاولت قريش أن نتجلد للمصيبة ،

ومنعت النوح على قتلاها ، ولعل هذه الحادثة تبرز الوضع النفسي المحطم الذي آلت إليه قريش .

قال ابن إسحاق (وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود والحارث بن زمعة ، وكان يحب أن يبكي على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أُحل النحيب ، هل بكت قريشاً على قتلاها لعلي أبكي على أبي حكيمة (يعني زمعة) فإن جوفي قد احترق ، فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها قد أضلته . قال : فذاك حين يقول له الأسود :

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بَكْرٍ ولكن على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكى إن بكيت على عقيلٍ وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكيِّهم ولا تسمي جميعاً وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا)[1]

(جـ) أما موقف المسلمين في المدينة ، فقد تعزز وأصبحوا سادة المنطقة كلها ، ويكفي أن قيادات قريش التي كانت تود أن تئد الإسلام والمسلمين ، كانت تفد إلى المدينة . وسيماء الذل على وجهها تريد أن تفدي أسراها

السبعين من خيرة شبابها كذلك أما المنافقون الذين كانوا يتربصون بالمسلمين شراً ، فنستطيع أن نشهد موقفهم من خلال هذه الحادثة :

(. . وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ . . يبشر أهل السافلة ، فلما أن جاء المصلى صاح على راحلته ، قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة . ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وقتل أبو جهل ، وأبو البختري ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير ، فجعل بعض الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون : ما جاء زيد إلا فُلاًّ[1] حتى غاظ ذلك المسلمين وخافوا . قال أسامة (ابن زيد) فسمعت الهيعة فخرجت فإذا زيد على العضباء جاء بالبشارة فوالله ما صدقته حتى رأيت الأسرى . وقدم زيد حين سووا على رقية بن رسول الله ﷺ التراب بالبقيع ، فقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر : قد تفرَّق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده أبداً ، وقد قُتل علية أصحابه ، وقتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب ، وجاء فلاًّ ، قال أبو لبابة : يُكَذِّبُ الله تعالى قولك ، وقال اليهود : ما جاء إلا فلاًّ . قال أسامة بن زيد : فجئت حتى خلوت بأبي . فقلت : يا أبه ، أحق ما تقول ؟ : قال أي والله حق ما أقول يا بني ، فقويت في نفسي ، ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت : أنت المرجف برسول الله ﷺ وبالمسلمين ، لنقدِّمنك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم فليضربن عنقك . فقال : يا أبا محمد : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه)[2] .

العربية حتى وصل إلى النجاشي في الحبشة ، كما روى البيهقي عن عبد الرحمن رجل من أهل صنعاء قال : أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر ابن أبي طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان[1] جالس على التراب . قال جعفر بن أبي طالب فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحالة ، فلما أن رأى ما في وجوهنا قال : إني أبشركم بما يسركم ، إنه قد جاءني من نحو أرضكم عين لي ، فأخبرني أن الله تعالى قد نصر نبيه ﷺ ، وأهلك عدوه فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر ، كثير الأراك .. فقال له جعفر ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق من الثياب ؟ قال : إنا نجد فيما أنزل الله تعالى على عيسى ﷺ أن حقاً على عباد الله تعالى أن يحدثوا لله عز وجل تواضعاً عندما يحدث لهم نعمة ، فلما أحدث الله تعالى نصر نبيه ﷺ ، أحدثت له هذا التواضع)[2] .

(د) أما أثرها بالنسبة لليهود في المدينة ، فقد غلى مرجل الحقد في قلوبهم ، وأصبحوا يشعرون بخطورة الإسلام والمسلمين عليهم ، وحرص النبي عليه الصلاة والسلام أن يستثمر هذا النصر لصالح الدعوة خاصة مع اليهود الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . والذين يعلمون أنه مرسل بالحق من عند الله ، فجمع بني قينقاع كما ذكر ابن إسحاق (بسوق لهم قال : **« يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ،**

وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ؟! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ..)[1] .

فقد أصبحوا حريصين على المواجهة مع الإسلام ، يخشون امتداده ، وعرفوا أن الانتصار الذي تم على المشركين في بدر يجعل القضية بينهم وبين محمد قضية حياة أو موت ، فإما وجودهم وإما وجوده ، ومن أجل ذلك واجهوا الرسول ﷺ وتحدوا القوة الإسلامية وردوا بصلافة على دعوتهم للإسلام ، وقالوا : والله لئن حاربتنا لتعلم أنا نحن الناس .

وكان أن وقعت غزوة قينقاع ، وثلّت عرشهم بعد بدر ، وتجلى مدى ارتباط معسكر المنافقين باليهود من خلال المعركة ، وأجواء بدر هي التى قادت إلى هذه المواجهة .

(هـ) وأثرها بالنسبة للعرب كافة ، شعر العرب أن القوة الإسلامية مرهوبة الجانب ، قوية الشكيمة ، لا يمكن أن تُتجاهل أو تواجه ، فأقلقت القبائل المجاورة ، وحاولت أن تفعل كفعل يهود ، فتقوم بالتجمعات لتهاجم المدينة ، غير أن القيادة النبوية كانت بالمرصاد وما الغزوات التي قامت عقب بدر مباشرة وهي غزوة بني سليم بالكدر بعد بدر بسبع ليال ، وغزوة ذي أمر ، وغزوة الفُرْع من بحران إلا محافظة على القوة الإسلامية الفتية أمام غطفان وقريش وسليم .

كانت بدر من حيث آثارها الخطيرة ظاهرة أرضية ، وظاهرة كونية شارك بها الإنس والجن والملائكة .

ففي عالم الأرض وعالم البشر نذكر أن سورة الروم عندما نزلت كانت تمثل آمال وطموحات عشرات المسلمين في مكة أن ينتصر الروم أهل الكتاب في الأرض على الفرس الوثنيين في الأرض ، حيث كان الفرس والروم يقتسمون الأرض آنذاك ، وكان هؤلاء العشرات من المسلمين ، والمئات من المشركين غفلاً في التاريخ وأحداثه يتفرجون على صناعة الكبار في الأرض ، ونذكر كيف تم الرهان بين أبي بكر رضي الله عنه وأُبيّ بن خلف[1] على نصر الروم بعد بضع سنوات ﴿ **ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] .

١ ــ وتحقق موعود الله جل شأنه ، فانتصر الروم بعد تسع سنين من هزيمتهم أمام الفرس ، **وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان وعد الله الذي لا يخلف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . هذا هو المدى الأقرب** للآيات . أما المدى الأعمق ، فكان أكبر وأضخم من تاريخ البشرية . لقد فرح المؤمنون بنصر الله يوم بدر ، ويوم نصرهم جاءت أخبار انتصار

الروم على الفرس[1] . لقد جاء خبر انتصار الروم هامشياً وثانوياً أمام انتصار بدر ، وكان فرح المؤمنين بنصر الله في بدر هو المدلول الأعمق للآية الكريمة . ولم يكن يدور بخلد عشرات المؤمنين في الأرض ، والآيات تتنزل في مكة ، أنهم هم المعنون في النصر ، وأنهم هم صُنَّاع الأحداث ، وأن الروم والفرس غدوا على هامش التاريخ بعد أن أنزل الله تعالى ملائكته لنصر المؤمنين في بدر ، وكان وعد الله الذي لا يُخلف هو نصر محمد وحزبه لا نصر الروم فقط . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، حتى المؤمنون لا يحيطون بعلم الله عز وجل . وماذا يُعدُّ لهم من نصر ، وماذا يعدُّ بهم من حسم .

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يُحقَّ الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحقَّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾[2] .

فالمسلمون قبل بدرٍ بأيام قلائل لم يكونوا يعلمون أنهم المعنون بنصر الله ينصر من يشاء وعد الله لا يخلف الله وعده ، ورسول الله سيد الخلق كان يلح على ربه بالنصر حتى ليسقط رداؤه عن كتفيه ، ويخشى

أن تكون هذه المعركة نهاية العصبة المؤمنة في الأرض « **اللهم إن تهلك ههذه العصابة فلن تعبد في الأرض** » .

لقد كان الرهان في عالم الأرض على افتتاح التاريخ بهذا النصر من أي من الفريقين ، فقد كانت مطامح أبي جهل أن يكون مِقودالعرب بيده بعد بدر ، ولا تزال العرب تهابه أبداً ، وإذا بنصر الله يتنزل فتنقلب الموازين ، ويتأرجح التاريخ ، ويصبح مقوده بيد المسلمين ، ومنذ ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث يأملون ويدعون كما كانوا أيام انتصار الفرس على الروم ، بل صاروا صُنَّاع أحداثه في بدر وبعدها . وجاء هذا النصر من الحسم ومن الضخامة بحيث اجتث الباطل من جذوره ، فقد سقط قادة الكفر صرعى في هذه المعركة ، وهم يحملون عبء الحرب ضد الدعوة خمسة عشر عاماً أو تزيد ، إنه جيل قادة كامل سقط على الساحة صريعاً بين يدي هذه العصبة المؤمنة ، أبو جهل بن هشام المخزومي ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة العبشميان ، وأمية بن خلف الجمحي ، وتبعهم بعدها النضر بن الحارث العبدري ، وعقبة بن أبي معيط الأموي ، وأبو لهب الهاشمي ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان . وقد عدَّد المقريزي أعداء رسول الله ﷺ الكبار في إمتاع الأسماع فكانوا سبعة وعشرين رجلاً قتل منهم في بدر وبعدها بقليل قرابة العشرين . (وعن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث) . وكان من فضل الله تعالى على المؤمنين أن يسقط بعض هؤلاء الأبطال صرعى بيد الفتيان الشباب من الأنصار ، مثل مقتل أبي جهل وأمية بن خلف على يد المستضعفين من المسلمين أمثال بلال وعبد الله بن مسعود تحقيقاً

لموعود الله عز وجل .

﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكِّن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[1] .

أما الجيل الجديد من القادة ، والذي نجا يوم بدر ، فمعظمه كتب الله تعالى له الهداية فيما بعد .

٢ ــ وكما كانت بدر عرساً في عالم الأرض ، كذلك كانت في عالم الجن .

(فقد ذكر قاسم بن ثابت في الدلائل أن قريشاً حين توجهت إلى بدر مرَّ هاتف من الجن على مكة في اليوم الذي أوقع بهم المسلمون ، وهو ينشد بأنفذ صوت ، ولا يرى شخصه :

أزار الحنيفيون بدراً وقيعة سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالاً من لؤيٍ وأبرزت خرائد يضربن الترائب حسرا[2]
فيا ويح من أمسى عدو محمدٍ لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا)[3]

لقد أدرك المؤمنون من الجن أبعاد هذه المعركة ، وأنها ستطيح بعرش كسرى وقيصر ، وبمقدار ما كان العرس في عالم الجن من المؤمنين ، بمقدار ما كان المأتم والويل والثبور عند كفار الجن وشياطينهم .

فقد حدثنا رسول الله ﷺ عن خزي إبليس يوم بدرٍ فقال : « **ما رؤي الشيطان يوماً أصغر ولا أدحر ولا أحقر ، ولا أغيظ منه يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رآه يوم بدر ، فإنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة** »[1] .

لقد اندحر الشيطان وحزبه من الإنس والجن يوم بدر ، وكانت الهزيمة الساحقة للشياطين في الأرض والكفار من الجن أشد هولاً وأقسى مرارة منها على كفار قريش بشهادة رسول الله ﷺ ــ كما علمه ربه ــ فهي أقسى هزيمة لإبليس على مدار تاريخه منذ خلقه الله تعالى إلى يوم يبعثون ، فهو في أشنع هزائمه كل عام يوم عرفة حين تحبط كل مخططاته ، ويغفر الله تعالى لأهل عرفة ، ولكن هذا كله يهون عن هزيمة بدر حيث خطط لنصر حلفائه فسقط معهم .

٣ ــ وهي كذلك على مستوى الخلائق كافة ، يوم يحشر الناس إلى الرحمن يوم القيامة .

(فعن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن عز وجل في الخصومة يوم القيامة . قال قيس : وفيهم نزلت : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ قال هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة ، وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن

عتبة)[1] .

(وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ نزلت في حمزة وصاحبه ، وعتبه وصاحبه يوم برزوا في بدر)[2] .

إن القرآن الكريم حين يعرض هذين الخصمين ، اللذين يمثلان الحق والباطل في هذا الوجود ، ليكون أضخم من يمثلهما يوم بدر فريق المؤمنين وفريق الكافرين علي وصحبه ، وعتبة وصحبه .

﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير ، وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[3] .

٤ ــ ومضى أهل بدر قادة في الأرض ، وقادة في السماء .

ففي الأرض : (ولعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر ، فقال :

اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم)[1] .

وفي السماء : (جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « **من أفضل المسلمين** » أو كلمة نحوها . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة)[2] .

الفصل الثالث والعشرون

غزوة أحـــد

أسباب الغزوة :

قال ابن إسحاق :

(لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ورجع فُلُّهم إلى مكـة ، ورجـع أبـو سفيـان بن حرب بعيره ، مشى عبـــد الله بن أبي ربيعـــة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتـل خيـاركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا)[1] .

وقـال البـلاذري : بل مشى أبـو سفيـان إلى هؤلاء الـذي سُموا فباعوهـا ، وكانت ألف بعير وخمسين ألف دينار . فسلمـوا إلى أهـل الـعير رؤوس أمـوالهم ،

وأخرجوا أرباحهم ، وكان يربحون في تجارتهم لكل دينار ديناراً . فأخرجوا خمسة وعشرين ألف دينار لأجل مسيرهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[1] . فأجمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ .

وبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبعري (وأسلما بعد ذلك) وهبيرة بن أبي وهب ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبا عزة الجمحي ـــ الذي منَّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر ـــ فألبوا العرب وجمعوها ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم (وأسلم بعد ذلك) فأخذ يؤلب على رسول الله ﷺ ويجمع الجموع ، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش فيهم سبعمائة دارع ومائة فارس ، وكتب العباس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك مع رجل من بني غفار فقدم عليه وهو بقباء ، فقرأه عليه أبيّ بن كعب ، واستكتم أبياً ، ونزل ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس فقال : والله إني لأرجو أن يكون خيراً)[2] .

واضح إذن أن السبب الرئيسي للغزوة هو الأخذ بثأر بدر ، وكما حدد القرآن الكريم بالضبط ﴿ **ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ وقد ألَّب أبو سفيان قبائل العرب المحالفة لقريش ، فقاد جيشاً قوامه ثلاثة أضعاف جيش بدر . وعرفت قريش أنها وحدها لا طاقة لها بمحمد وأصحابه ، فلجأت إلى التعبئة العربية

لإنهاء الإسلام ونبيه من الوجود ، ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

أحداث الغزوة :

١ ــ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أرى عن النبي ﷺ قال : « **رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره ، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان . فإذا هو ما جاء به الله من الفتح ، واجتماع المؤمنين ، ورأيت فيها بقراً والله خير . فإذا هم المؤمنون يوم أحد** »[١] .

٢ ــ وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « **رأيت كأني في درع حصينة ، ورأيت بقراً تنحر فأولت أن الدرع الحصينة المدينة ، وأن البقر نَفَرٌ والله خير** » فقال لأصحابه : « **لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم** » فقالوا : والله يا رسول الله ما دُخِل علينا فيها في الجاهلية ، فكيف يُدخل علينا فيها في الإسلام ؟ فقال : « **شأنكم إذن** » فلبس لأمته[٢] قال : فقالت الأنصار : رددنا على رسول الله ﷺ رأيه . فجاؤوا فقالوا : يا نبي الله شأنك إذاً . فقال : « **إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** »[٣] .

٣ ــ (... وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة .. فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أُبيّ بن سلول بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن حرام أخو بني سلمة يقول : « **أذكّركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من غدوِّهم** » فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال ..)[١] .

وعن زيد بن ثابت قال : (لما خرج النبي ﷺ إلى أحد ، رجع ناس ممن خرج معه ، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين ، فرقة تقول : نقاتلهم ، وفرقة تقول : لا نقاتلهم .. فنزلت : ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين ، والله أركسهم بما كسبوا** .. ﴾[٢])[٣] .

٤ ــ (عن جابر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية فينا : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾[٤] بني سلمة وبني حارثة ، وما أحب أنها لم تنزل ، والله يقول : ﴿ **والله وليهما** ﴾)[٥] .

٥ ــ عن البراء رضي الله عنه قال : (لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمرَّ عليهم عبد الله (بن جبير) وقال : « **لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم لا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا** » ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتدون في الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة !! فقال عبد الله : عَهِدَ إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا . فأبوا : فلما صُرِف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلاً ، وأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : « **لا تجيبوه** » ، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : « **لا تجيبوه** » ، قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك . قال أبو سفيان : أعل هُبَل . فقال النبي ﷺ : « **أجيبوه** » قالوا : ما نقول ؟ قال : « **قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم** » قال أبو سفيان : الحرب سجال : يوم بيوم بدر . وتجدون مثلة لم آمر بها)[1] .

٦ ــ عن عائشة رضي الله عنها قالت : (لما كان يوم أحد هزم المشركون فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي !! قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم) قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية من خير)[2] .

وعن أبي إسحاق قال : (سمعت البراء بن عازب رضي الله عنهما يقول : جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد ، عبد الله بن جبير ، وأقبلوا منهزمين ، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم)[1] .

قال ابن إسحاق : وحدثني يحيى بن عباد[2] .. عن الزبير قال : (والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[3] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشَفَنَا القوم عنه ، وخلُّوا ظهورنا للجبل فأُتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنوا منه أحد من القوم)[4] .

٧ ــ عن أنس قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوِّب عليه بحجفة له ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل ، فيقول : انثرها لأبي طلحة ، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك ، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقزان[5] القِرب على متونهما تفرغانه

في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ، ولقد وقع السيف من أبي طلحة مرتين أو ثلاثاً)[1].

٨ ــ وعن جابر قال : انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار ، وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل ، فلحقهم المشركون فقال : ﴿ **من لهؤلاء ؟** ﴾ فقال طلحة : أنا يا رسول الله . فقال : ﴿ **كما أنت يا طلحة** ﴾ فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله . فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه ، ثم قتل الأنصاري ، فلحقوه ، فقال : ﴿ **ألا رجل لهؤلاء ؟** ﴾ فقال طلحة مثل قوله . فقال سول الله ﷺ مثل قوله . فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله . فقاتل وأصحابه يصعدون ، ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة : أنا يا رسول الله ، فيحبسه ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له . فيقاتل مثل ما كان قبله . حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **من لهؤلاء ؟** ﴾ فقال طلحة : أنا . فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله . فقال : حس . فقال : ﴿ **لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج في جو السماء** ﴾ ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون)[2] .

وعن أنس بن مالك : (أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في

سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش فلما رهقوه قال : ﴿ **من يردُّهم عنا وله الجنة** ﴾ أو : ﴿ **هو رفيقي في الجنة ؟** ﴾ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً . فقال : ﴿ **من يردهم عنا وله الجنة** ﴾ أو ﴿ **هو رفيقي في الجنة ؟** ﴾ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : ﴿ **ما أنصفنا أصحابنا** ﴾)[1] .

٩ ــ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد)[2] .

وعن عائشة قالت : (حدثني أبي قال : لما انصرف الناس عن النبي ﷺ كنت أول من فاء إلى رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إلى رجل يقاتل بين يديه ، فقلت : كن طلحة . فلما نظرت فإذا أنا بإنسان خلفي كأنه طائر ، فلم أشعر أن أدركني ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا طلحة بين يديه صريعاً . قال : دونكم أخاكم فقد أوجب فتركناه . وأقبلنا على رسول الله ﷺ وفي وجهه سهمان ، فأردت أن أنزعهما ، فما زال أبو عبيدة يسألني ويطلب إلي حتى تركته ينزع أحد السهمين . وأزَّم[3] عليه بأسنانه فقلعه . وابتدرت[4] إحدى ثنيتيه ، ثم لم

يزل يسألني ويطلب مني أن أدعه ينزع الآخر ، فوضع ثنيته على السهم وأزَّم عليه كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ إن تحول ، فنزعه وابتدرت ثنيته الأخرى . قال : فكان أبو عبيدة اهتم الثنايا)[1] .

١٠ــ وعن كعب بن مالك قال : (لما كان يوم أحد ، وصرنا إلى الشعب كنت أول من عرفته . فقلت : هذا رسول الله ﷺ فأشار إليَّ بيده أن أسكت . ثم ألبسني لامته ولبس لامتي ، فلقد ضربت حتى جرحت عشرين جراحة ، أو قال بضعة وعشرين جرحاً كل من يضربني يحسبني رسول الله ﷺ)[2] .

١١ــ (وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة ، وقول الناس : قتل رسول الله ﷺ كما ذكر لي ابن شهاب الزهري كعب بن مالك ، قال : عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إلي رسول الله أن أنصت .

قال ابن إسحاق : فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعب ، ومعه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام رضوان الله عليهم ، والحارث بن الصمة ، ورهط من المسلمين)[3] .

١٢ــ قال ابن هشام : وذكر ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري (أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجَّه في جبهته ، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر[١] في وجنته .. ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر (الفاسق) ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله ﷺ ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، ومصَّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري ، الدمَّ عن وجه رسول الله ﷺ ثم ازدرده[٢] فقال رسول الله ﷺ : **« من مسَّ دمي دمه لم تصبه النار »**)[٣]

١٣ــ قال ابن إسحاق : فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشِّعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته ماءً من المهراس ، فجاء به النبي ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه ..)[٤] .

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد وهو يُسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال : أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول

الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دُووي ، كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله ، وعلي يسكب الماء بالمِجنُّ . فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدَّمَّ إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها . فاستمسك الدم ، وكسرت رباعيته يومئذ ، وجُرح وجهه وكُسرت البيضة على رأسه)[1] .

١٤ــ (فبينا رسول الله ﷺ بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل فقال رسول الله ﷺ :« **اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا** » فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل)[2] .

١٥ــ (عن عائشة رضي الله عنها ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ قالت لعروة : يا ابن أختي كان أبوك منهم الزبير وأبو بكر ، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد . وانصرف عنه المشركون . خاف أن يرجعوا ، قال : من يذهب في إثرهم . فانتدب منهم سبعون رجلاً . قال : كان فيهم أبو بكر والزبير)[3] .

١٦ــ عن عبيد الله بن رفاعة الزرقي قال : (لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون

قال رسول الله ﷺ : « **استووا حتى أثني على ربي عز وجل** » فصاروا خلفه صفوفاً فقال : « **اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قرَّبت . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة والأمن يوم الخوف . اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين . اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل كفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق** »[1] .

١٧ــ عن قتادة قال : ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعز يوم القيامة من الأنصار .

قال قتادة : (وحدثنا أنس بن مالك أنه قتل منهم يوم أحد سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون . وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ ويوم اليمامة على عهد أبي بكر الصديق يوم مسيلمة)[2] .

بين بدر وأحد :

١ ــ ولقد قال الله تعالى في بدر : ﴿**ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾[١] .

وقال تعالى في أحد : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾[٢] .

فنحن إذن أمام تمييزين : التمييز في بدر بين المؤمنين والكافرين . فكانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل ﴿ ... **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير** ﴾[٣] .

وكانت بدر كما قال تعالى : ﴿ .. **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾[٤] .

فكان الصف مؤمناً كله ﴿ **ولعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** ﴾ وكانوا كما قال عليه الصلاة والسلام « **كعدة أصحاب طالوت ، والله ما جاوزه إلا مؤمن** » .

أما في أحد فقد كان التمييز في الصف بين المؤمنين والمنافقين : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ (1)

وطبيعياً أن يتخلخل الصف بعد بدر ، فالذين دخلوا في الإسلام ، دخل كثير منهم مجاراة لقوة الإسلام ، وانصياعاً أمام انتصاراته ، وما أن لاحت لحظة ضعف ، حتى كشف المنافقون خبيئة نفوسهم كشفوها يوم انفصلوا عن الجيش ، وقد وصلت إليهم أنباء القوة المشركة الطاغية التي جاءت تحتل المدينة ، وانكشفت خبيئة ما تبقى منهم يوم بلغهم مقتل رسول الله ﷺ ، وانقض عليهم المشركون من الخلف فقالوا : إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول . إن من الطبيعي أن تخلو بدر من المنافقين وليس في ساعة المواجهة أي أمل بالنصر ، إنما هو استعداد للبذل والتضحية والشهادة . ومن الطبيعي كذلك أن ينبت النفاق قبيل أحد وفي أحد بعد النصر الحاسم القاصم في بدر ، وقطع دابر الكافرين من قريش ، وسيطرة القوة الإسلامية على الساحة ، وهزيمة اليهود الماحقة في بني قينقاع في المدينة ، فقذ قذف الرعب في قلوب المنافقين ، فأخفوا دخيلة أنفسهم وساروا مع الركب مكرهين .

٢ ــ إن جو أحد يختلف تماماً عن جو بدر ، ففي بدر : ﴿ **إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور** ﴾[١] .

وفي أحد : ﴿ .. **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾[٢] .

في بدر .. علم الله تعالى ما في صدور المؤمنين ، وأنهم يستحقون النصر ، على ضعفهم وعجزهم وقلة عددهم وعُددهم ، فأرسل جنوده من الريح والحصى والنعاس والماء ، وجنوده من الملائكة ، وجنوده الذين تحكموا حتى في عيون المؤمنين والمشركين ، وسلَّم من الابتلاء ، فكان النصر الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً له .

أما في أحد ، فلم يسلِّم الله تعالى بعد أن سلَّم ابتداء ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ ولم تكن ذات الصدور في أحد كما كانت في بدر ، فلقد كان الفشل والتنازع في الأمر ، والمعصية ، وحب الدنيا ، وبرز هذا كله من بعد ما أراكم ما تحبون ، أي من بعد نصر الله ابتداءً .. فكان قدر الله الذي لا يردَّ ، أن تكون العقوبة مباشرة ﴿ ... **ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** .. ﴾ .

وهو ابتلاء فقط ، ومحنة وتمحيص ، وليست هزيمة أو إبادة ، ﴿ **ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ فالابتلاء عفو من الله تعالى وفضل كبير .

قوانين النصر والهزيمة :

(أ) النصر ابتداء وانتهاء ، بيد الله عز وجل ، وليس ملكاً لأحد من الخلق ، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء ، مثله مثل الرزق ، والأجل والعمل .. ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾[1] . ﴿ **وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[2] .

(ب) وحين يقدِّر الله تعالى النصر ، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه ، وحين يقدر الهزيمة ، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[3] .

(جـ) ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله عز وجل نحن بحاجة إلى فقهها ، فلا بد أن تكون الراية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[4] .

ونصر الله تعالى في الاستجابة له ، والاستقامة على منهجه ، والجهاد في سبيله .

(د) ووحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر ، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[1] .

(هـ) وطاعة أمر الله تعالى ورسوله وعدم الخروج عليها أساس في النصر ، أما المعصية فتقود إلى الهزيمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ..** ﴾ .

(و) وحب الدنيا والتهافت عليها يفقد الأمة عون الله ونصره ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ..** ﴾ .

(ز) ونقص العدد والعدة ، ليس هو سبب الهزيمة ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾[2] .

(ح) ولكن لا بد من الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة العدو ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف**

إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾[1] .

(ط) والثبات عند المواجهة ، والصبر عند اللقاء من العوامل الرئيسية في النصر ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا .. ﴾** ، ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار .. ﴾**[2] .

(ي) ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء ، مثل ذكر الله الكثير باتجاه القلب إلى الله وحده منزّل النصر ، وطلب العون منه ، والتوكل عليه ، وعدم الاعتماد على العدد أو العدة أو الذات والتبرؤ من الحول والقوة ، هو عامل أساسي من عوامل النصر . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾**[3].

التمحيص في أحد :

١ ــ وحين وجدنا في بدر من يقول : (والله ما نقول لك كما قال قوم موسى لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾** بل نقول : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ﴾** ، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك .

وقول سعد عن الأنصار : (... فوالذي بعثك بالحق لو

استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، إنا لصُبُر في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك) .

وصدق سعد ، فما تخلف رجل واحد ، وما جاوزه معه إلا مؤمن .

وجدنا في أحد من يقول : أطاعهم ، وعصاني ، ما أدري علام نقتل أنفسنا أيها الناس .

ولم ينخذل رجل واحد فقط ، بل انخذل معه ثلث الجيش ثلاثمائة ، فالفرق بين الصورتين واضح .

٢ ــ وحتى السبعمائة الذين تبقوا حقق الله تعالى بهم موعوده ، فأكثريتهم كانوا من المؤمنين الصادقين ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ (والله لكأني أنظر إلى خدم (خلاخل) هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير) .

٣ ــ ولكن هؤلاء السبعمائة لم يكونوا مع ذلك على مستوى إيماني واحد ، فلا يزال فيهم من يتعاطف مع ابن أُبيّ وجنده ، وهذه القلة هي التي قلبت الميزان ، وغيرت الموقف ﴿ **وإذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[1] .

﴿ ... **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن**

الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر شيء . قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾[1] .

﴿ .. منكم من يريد الدنيا .. ومنكم من يريد الآخرة ﴾ .

﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[2] .

ففيهم المنافقون إخوان عبد الله بن أُبيّ ، وفيهم ضعاف الإيمان ، وفيهم الذين عصوا الأمر وأرادوا الغنيمة .

القيادة النبوية العظيمة :

ويبرز بين يدينا إزاء هذه التضحيات الخالدة ، القيادة النبوية العظيمة ، التي استطاعت أن تُحوِّل الهزيمة المتوقعة إلى ثبات كثبات الرواسي ، وحالت دون تقدم المشركين شبراً واحداً نحو المدينة ، رغم أن قريشاً وقادتها وضعوا كل ما يملكون من قوة ، وتعاهد أربعة من صناديدها على قتل محمد ﷺ .

١ ــ فقد ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين من خلف المسلمين والهدف الرئيسي فيه شخص النبي ﷺ ، فلم يتزحزح عليه الصلاة والسلام من موقعه ، والفدائيون المسلمون يسقطون صرعى بين يديه .

٢ ــ ثم أحكم الهجوم ، فأفرد عليه الصلاة والسلام وحصر في قلب المشركين ، وليس معه إلا أحد عشر من أصحابه تسعة منهم من الأنصار ، وكان الهدف أن يخلص عليه الصلاة والسلام من هذا الحصار ، وعليه أن يصعد في الجبل ، ليمضي إلى جيشه ، وقُتل الأنصار التسعة وهم يصدون الهجوم عنه .

٣ ــ وبقي طلحة رضي الله عنه وحده ، حيث قاتل قتال التسعة ، وسقط جريحاً بين يدي النبي ﷺ .

٤ ــ وحينئذ قدم سعد بن أبي وقاص حيث رأى رسول الله ﷺ وحده ، ويقاتل عنه رجلان يلبسان ثياباً بيضاء هما جبريل وميكائيل .

٥ ــ وما هي إلا لحظات حتى وصل أبو بكر وأبو عبيدة ، وقام أبو عبيدة بنزع السهمين من وجه النبي ﷺ بأسنانه .

٦ ــ ثم توارد مجموعة من الأبطال المسلمين ، حيث بلغوا قرابة الثلاثين يذودون عن رسول الله ﷺ منهم قتادة ، وثابت بن الدحداح ، وسهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وأبو طلحة ، وعمر رضي الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير .

٧ ــ واستطاع بهذه المجموعة الفدائية أن يشق الصفوف ، ويصل إلى جيشه المبعثر ، حيث فرَّ بعضه إلى المدينة ، وأُسقِط في يد البعض الآخر ولا يدري ما يفعل ، ونجم النفاق لدى المنافقين حتى يقولوا : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، وذلك كله عقب إشاعة مقتل النبي ﷺ ، والذي أشاعه ابن قمئة ، الذي قتل مصعب بن عمير وحسبه رسول الله .

وحين رأى كعب بن مالك رضي الله عنه رسول الله ﷺ وعيناه تزهران من تحت المغفر صرخ بأعلى صوته هذا رسول الله ، فأشار له عليه الصلاة والسلام أن اصمت .

واشتد الهجوم من جديد من المشركين ، نتيجة هذا النداء ، وازداد تجمع المسلمين من جهة ثانية ، حول رسول الله ﷺ يستميتون في الذود عنه .

وكانت الخطة الاحتياطية ، أن لبس رسول الله ﷺ ثياب الحرب لكعب بن مالك وأعطاه لأمته ، وخلال لحظات قليلة توجهت الضربات لكعب حتى بلغت عشرين جراحة ، وهم يحسبونه رسول الله ﷺ .

٨ ــ ثم كان الهجوم المضاد ، حيث علت عالية الجبل وفيهم خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم إنه لاينبغي لهم أن يعلونا** » فقاد عمر بن

الخطاب رضي الله عنه ، ومجموعة من المهاجرين هذا الهجوم المضاد وأنزلوهم عن الجبل . وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد .

٩ ـــ وكانت المرحلة الأخيرة التي أراد أبو سفيان أن يثبت فيها انتصاره وهو يرى جثث الشهداء تنتشر في كل مكان ، فكان الهدف الرئيسي عنده أن يتأكد من مقتل القيادة النبوية ، فصرخ أفيكم محمد ؟ أفيكم ابن أبي قحافة ؟ أفيكم ابن الخطاب ؟

وحين لم يسمع جواباً هتف فرحاً (إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا) .

وهؤلاء الثلاثة هم الهدف الرئيسي حين عجز أبو سفيان عن اختراق الجيش للمدينة ، غير أن عمر رضي الله عنه لم يتمالك أن قال : كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك .

وكانت طعنة عنيفة في صدر أبي سفيان ، فتجرعها غصصاً ، وراح يفخر بنصره الموهوم :

ـــ أنعمت فِعال ، وإن الحرب سِجال ، يوم بيوم ، أعلِ هُبَل .
ـــ الله أعلى وأجل لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .
ـــ لنا العزى ولا عزى لكم .
ـــ الله مولانا ولا مولى لكم .

ولا يزال في ذهن أبي سفيان حلم فنادى : هلمَّ إليَّ يا عمر ! فقال رسول الله ﷺ : « **ائته فانظر ما شأنه** » فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ،

وإنه ليسمع كلامك الآن . فقال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر .

١٠ــ وكان حسبان العواقب في الخطة ، أن بعث رسول الله ﷺ في آثارهم سبعين رجلاً كان فيهم أبو بكر والزبير . وفي رواية ابن هشام ، كان على رأسهم علي بن أبي طالب ، وحدد له الهدف قائلاً : « **اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون . فإن كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة . والذي نفسي بيده ، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنَّهم** » قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة)[١] .

١١ــ وكانت خاتمة المطاف في الخطة : خروج الرسول ﷺ في أثر العدو ليرهبه. (فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشر ليلة مضت من شوال[٢] أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس يطلب العدو . فأذَّن مؤذنه ، أن لا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس .. وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم .. فخرج حتى انتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء ــ وقد مرَّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي[٣] ومعبد يومئذ

مشرك ـــ وخرج حتى لقي ابا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه .. وقالوا : أصبنا حدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ! لنكرَّن على بقيتهم . فلنفرغنَّ منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً . قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرَّقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط قال : ويحك ! ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال : فإني أنهاك عن ذلك .. فثنى ذلك أبو سفيان ومن كان معه)[1] .

* * *

والوقوف مع القيادة النبوية درس عظيم للمسلمين في الأرض وللدعاة منهم خاصة .. فإننا كثيراً ما نبرر هزائمنا المتوالية ، ونشبهها بيوم أحد ، وهو خطأ فادح ، إن الشهداء السبعين الذين قضوا نحبهم في أحد ، ووراءهم الأعداد الضخمة من الجرحى ، لم تمضِ هدراً أو عبثاً ، إنما سقطت وهي تذود عن القيادة وعن الدين ، وعن الله ورسوله ، وعظمة القيادة النبوية أنها استطاعت بهذا القدر القليل من الضحايا أن تصد الهجوم الشرس ، وتفوِّت الهدف الرئيسي للمشركين في استئصال شأفة المسلمين ، واستباحة بيضتهم ، وأن تعيد أبا سفيان مع جيشه من المشركين ، وقلوبهم واجفة أن يلحق بهم محمد بجيشه المتجمع في

حمراء الأسد ، وعليه أن يرحل فزِعاً قبل أن يرى نواصي الخيل تطلُع من المدينة .. ورحل .

آثار المعركة :

١ ــ من حيث موقف المسلمين في المدينة :

(ولما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه ما حصل جعل عبد الله بن أبي بن سلول والمنافقون يشمتون ويسرون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول ، فيقول ابن أبي لابنه عبد الله وهو جريح قد بات يكوي جراحه بالنار : ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي . عصاني محمد وأطاع الولدان .. والله لكأني كنت أنظر إلى هذا . فقال ابنه : الذي صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير . وأظهر اليهود القول السيء ، فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبي قط . أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه ، وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابهم ويأمرونهم بالتفرق عنه ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل .. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من اليهود والمنافقين . فقال ﷺ :

« يا عمر إن الله تعالى مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم » قال : فهؤلاء المنافقون ؟ قال : **« أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ »** قال : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف فقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله تعالى أضغانهم

عند هذه النكبة ، فقال : « **إني نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يابن الخطاب : إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن** »)[1] .

قال ابن شهاب الزهري :

(لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان عبد الله بن أبي بن سلول له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفاً له في نفسه وقومه ، وكان شريفاً فيهم . إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله فقال : أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم اللهتعالى ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا . ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعل . فأخذ المسلمون ثوبه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أي عدو الله ، لست لذلك بأهل . وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس ويقول : والله لكأنما قلت بجراً أن قمت لأشد أمره . فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال له : ما مالك ؟ ويلك . قال : قمت أشدد أمره فوثب رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنني قلت بجراً أن قمت أشد أمره . قال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي)[2] . لقد سقطت الأقنعة عن المنافقين في المدينة ، وانفضحوا بأعيانهم وأشخاصهم خاصة الذين انخذلوا

مع عبد الله بن أبي . وجاء القرآن الكريم فدمغهم بالخيانة ، والتمالؤ مع الكفر ، وقال عنهم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، ووصفهم بأنهم إخوان الذين كفروا . وكانت هذه التعرية مهمة جداً في التعامل معهم .

صحيح أن القتل الجسدي لم يقع ، ولكن القتل المعنوي لهم قد وقع ، ولم يكن أمامهم خيار إلا بالقبول في هذا الواقع الذليل المفضوح ، أو حسن التوبة والإنابة والانضمام إلى الصف المسلم ، وقال القرآن فيهم : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً** ﴾)[1] .

٢ ـــ من حيث جرأة العرب على المؤمنين :

وامتدت آثار الغزوة خارج المدينة ، فأصبحت القبائل المجاورة تطمع في النيل من المسلمين ، وتتالت المحن على الصف المؤمن بعد أحد ، وامتد ليل المحنة الطويل إلى غزوة الخندق ، فكانت في هذه المرحلة الصعبة محنة سرية الرجيع واستشهاد أبطالها الأحد عشر ، ومحنة بئر معونة واستشهاد سبعين من القراء خيرة أصحاب النبي ﷺ ، وجرت محاولات لغزو المدينة ، ومحاولات لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام .

وأمام هذه المحن ، كانت القيادة النبوية الساهرة ، والصف المؤمن الفدائي ، يفتت كل تلك المؤامرات وقامت الخطة النبوية بعملية الغزو لمواقع العدو قبل أن يتم تجمعه ، وهو يعد العدة للانقضاض على المدينة ، فقد كانت غزوة حمراء الأسد عقب أحد بيوم واحد ، وغزوة ذات الرقاع

لغطفان في نجد ، وفيها جرت محاولة اغتيال النبي ﷺ وباءت بالفشل ، وغزوة بدر الآخرة للموعد الذي ضربته قريش وانخذلت عنه فلم تحضر . مما رفع معنويات المسلمين في قلب أعدائهم ، إلى أن كانت غزوة الخندق والتي مثلت المحاولة الأخيرة لإنهاء الوجود الإسلامي واجتثاثه من الأرض العربية .

﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾[1] .

٣ ــ من حيث الموقف مع قريش :

لقد كان تأخر قريش في غزوها عامين بعد أحد ، مرتبط بالخطة النبوية العظيمة التي تمت بعد أحد ، ويكفينا أن القرآن الكريم وصف قريش بعد المعركة وقد ألقى الرعب في قلوبها بعد أحد ، كما فسر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما وابن جرير .

يقول عز وجل : ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين** ﴾[2] .

أخرج ابن جرير عن السدي قال : (لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة ، انطلق أبو سفيان حتى بلغ

بعض الطريق ، ثم أنهم ندموا فقالوا : بئسما صنعتم أنكم قتلتموهم حتى لم يبق إلا الشريد تركتموهم ؟ ارجعوا فاستأصلوا ، فقذف في قلوبهم الرعب فانهزموا ..)[1] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية : قال : قذف الله في قلب أبو سفيان الرعب فرجع إلى مكة . فقال النبي ﷺ : **« إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً ، وقد رجع وقذف الله في قلوبهم الرعب »**)[2] .

أما كيف قذف الله في قلبه الرعب ، فيحدثنا ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم فيقول : (.. وقد مر به ـــ أي رسول الله ﷺ ـــ معبد بن أبي معبد الخزاعي ـــ وكان خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة صفقهم معه[3] ـــ لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك فقال : يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم . ثم خرج ورسول الله بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرنَّ على بقيتهم فلنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط

يتحرقون عليكم تحرقاً ، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط . . قال : ويحك ، ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل . قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر . قال : فما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تهد من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[1]
تردى بأسد كرام لا تنابلة[2] ... عند اللقاء ولا ميل[3] معازيل[4]
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت[5] البطحاء بالجيل
إني نذير لأهل البسل[6] ضاحية ... لكل ذي إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وحش قنابله[7] ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل[8]

لقد باءت إذن محاولات قريش مرتين بالفشل في محاولة الاستئصال :

الأولى : حين ووجهوا بثبات أشد من الجبال الرواسي من رسول الله ﷺ والصفوة المختارة معه ، والخطة العظيمة التي أعادت شتات الجيش الإسلامي ، وحطمت هجوم العدو ، واحتلت المواقع التي احتلتها من جديد .

الثانية : يوم حطم معبد بن أبي معبد هجومهم بما نقل عن التعبئة النبوية للانقضاض على المشركين ، فعادوا يسرعون الخطا قبل أن تصل إليهم كتائب محمد وأصحابه من جديد .

وأمام هذا العجز ، فقد انكبوا على القتلى يمثلون بهم في الفشل الأول ، وتخلفوا عن الموعد الذي ضربوه في بدر في العام القابل بعد الفشل الثاني ، وتأخروا سنتين كاملتين حتى أعدوا العدة ، وتحالفوا مع اليهود وغطفان في المحاولة الأخيرة في الخندق .

كيف عالج القرآن أثر المحنة ؟!

عاد المسلمون مثخنين بالجراح إلى المدينة ، بعضهم قرير العين بما أبلى مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وبعضهم يتجرع غصص الندامة لتخليه عن رسول الله ﷺ أو لفراره من المعركة ، وبعضهم يحمل في قلبه فرحاً لما نزل بالمسلمين بأحد وشماتة بهم ، وأسلموا سبعين شهيداً على ثرى أحد ، والنفوس تجوس بالخواطر ، وتغلي بالمشاعر ، والجراح التي نزلت بالكثيرين منهم لا يزالون يئنون منها ، وقسم منهم يخشى من المفاجآت وأن تعود قريش من جديد لتستأصل بقيتهم .

في هذه المراجل المتقدة والمتنوعة نزلت آيات القرآن تترى ، لتكشف كل هذه النفوس بما يجيش بها من مشاعر ، وما يتفاعل فيها من أحاسيس ، ولتقدم التقييم للمواقف ، والتحديد للوقائع :

١ ــ فالصف المؤمن يواسى بجراحه ويُسمى بمعنوياته : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ويمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾[1] .

٢ ــ وما أصابه فهو مسؤول عنه ، لكنه ضمن التقدير الرباني في التمييز والكشف بين المؤمنين والمنافقين ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ..** ﴾[2] .

﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ..** ﴾[3] .

٣ ــ كما يثني على ثباتهم وصبرهم على ما نزل بهم من قرح ، وما حاول العدو بهم من كيد ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح**

للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذي قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾[1] .

٤ ــ كما أثنى على الذين أبلوا أعظم البلاء بجوار نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام وسكب في قلوبهم الأمن ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .. ﴾**[2] .

٥ ــ ورفع الشهداء إلى أعلى المقامات في عليين بحيث يغبطهم إخوانهم الأحياء على ذلك ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾**[3] .

٦ ــ بينما نجد فضيحة المنافقين وتعريتهم قد أسقطت المنافقين من حساب المؤمنين وعرتهم ، وضمتهم إلى الكافرين . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت**

والله بما يعملون بصير ﴾[1] .

﴿ وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا . قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[2]

٧ ــ وتأتي هذه النصوص جميعاً لتثبيت المعايير الإيمانية في مفهوم القدر ، ومفهوم الحياة والموت ، ومفهوم النصر والهزيمة ، ومفهوم الربح والخسارة ، ومفهوم الإيمان والنفاق ، ومفهوم المحنة والمحق ، لتعيد الصياغة الجديدة لهذه المجموعة على هدى القرآن ونوره فتغدو العصبة الربانية المختارة من جديد ، وتصنع على عين الله ، ويكونوا الربانيين المختارين الذين يريدهم لتحقيق موعوده في الأرض .

الفصل الرابع والعشرون

غزوة الخنـــدق

أسباب الغزوة :

(أ) وسببها أن النبـي ﷺ لما أجلى بنـي الـــنضير ، وساروا إلى خيبر وبها من يهود قوم أهـل عدد وجلـد ، ولـيس لهم من البيـوت والأحساب ما لبنـي النضير . فخـرج نفـر من اليهود (منهم سلام بن أبي الحقيـق الـنضري ، وحيـي بن أحـطب الـنضري ، وكنانـة بن أبي الحقيـق ، وهـوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ، ونفر بن وائـل . وهـم الذيـن حزبـوا الأحـزاب على رسول الله ﷺ ، خرجـوا حتـى قدمـوا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقال : إنا سنكون معكـم عليـه حتـى نستأصلـه ، فقـالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكـم أهـل الكتاب الأول والعلـم بما أصبحنا نختلـف فيـه نحن ومحمـد . أفديننـا خير من دينه ؟ قالوا : بل دينكـم خير من دينـه وأنتم أولى بالحق منـه ، فهـم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتـوا نصيبـاً من الكتـاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهـدى من الذيـن آمنوا سبيلاً** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ .. **وكفى بجهنم سعيراً** ﴾[1] .

فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه)[1] .

(ب) ثم إن قريشاً تجهزت ، وسيَّرت تدعو العرب إلى نصرها ، وألبوا أحابيشهم ومن تبعهم ، وخرجوا في أربعة آلاف ، وعقدوا اللواء في دار الندوة ، وحمله عثمان بن طلحة ـــ وأسلم بعد ذلك ـــ وقادوا ثلاثمائة فرس ، وكان معهم ألف وخمسمائة بعير .

ولاقتهم بنو سليم بمر الظهران في سبعمائة ، يقودهم سفيان بن عبد شمس .

وخرجت بنو أسد بن خزيمة وقائدها طلحة بن خويلد الأسدي (وأسلم بعد ذلك) .

وخرجت بنو فزارة وأوعبت وهم ألف يقودهم عيينة بن حصن (وأسلم بعد ذلك) .

وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رخيلة (وأسلم بعد ذلك) وهم أربعمائة .

وخرجت بنو مرة في أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف المري (وأسلم بعد ذلك)[1] .

وكان القوم الذي وافوا الخندق من قريش وأسد وسليم وغطفان عشرة آلاف ، وعناج الأمر إلى أبي سفيان .

(جـ) وأما ما كان من أمر رسول الله ﷺ فإن خزاعة عندما تهيأت قريش للخروج أتى ركبهم رسول الله ﷺ في أربع ليال حتى أخبروه ، فندب الناس ، وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم في أمرهم ، أيبرز من المدينة أم يكون فيها ، ويحاربهم عليها وفي طرقها ؟ فأشار سلمان رضي الله عنه بالخندق ، وقال : يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فأعجبهم ذلك ، وأحبوا الثبات في المدينة ، وأمرهم رسول الله بالجد ووعدهم النصر ، إذا هم صبروا واتقوا ، وأمرهم بالطاعة ، ولم تكن العرب تخندق عليها .

وركب فرساً له ومعه عدة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً الجبل خلف ظهره . ويخندق من المزاد إلى ذباب إلى رابخ فعمل يومئذ في الخندق ، وندب الناس ، وخبرهم بدنو عدوهم ، وعسكرهم إلى سفح سلع ، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو إليهم ، واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرازين ومكاتل للحفر ،

ووكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه فكان المهاجرون يحفرون من ناحية رابخ إلى ذباب ، وكانت الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل أبي عبيدة)[1]

(د) ووقع في أيام الخندق معجزات باهرة من علامات نبوته ﷺ كحديث الكدية[2]، وهي قِطعُ الجبل التي اعترضت لهم في حفر الخندق . فلم يعمل فيها المعاول وأعيت فيها الحيل ، فأخذ رسول الله ﷺ المعول وسمى الله وضربها فانهالت كالكثيب[3] . وكحديث أبي طلحة حيث بعث إنساناً بأقراص من شعير تحت إبطه ، ففتها رسول الله ﷺ وأطعم منها ثمانين . وكحديث جابر حيث دعا النبي ﷺ خامس خمسة على صاع من شعير وعَناقٍ[4] ذبحها لهم . كما رأى النبي ﷺ قد ربط حجراً على بطنه من الجوع . فبصق رسول الله ﷺ في البُرمة[5] وفي العجين (ونادى يا أهل الخندق) وكانوا ألفاً ، على ما بهم من الجوع ، فأشبعهم جميعاً خبزاً وثريداً ولحماً . قال جابر : فأقسم بالله ولقد انصرفوا وإن برمتنا لتغط[6] كما هي . وإن عجينتنا لتُخبز[7] . وكقوله ﷺ لما

انصرفت الأحزاب : « **لن تغزونا قريش بعدها بل نغزوهم ولا يغزونا** »[1] فكان كما قال وكانت تلك الشدة خاتمة الشدائد)[2] .

أحداث الغزوة :

١ ـــ (ثم كانت وقعة الأحزاب بعد وقعة أحد بسنتين ، وذلك يوم الخندق ، ورسول الله ﷺ جانب المدينة ، ورأس المشركين يومئذ أبو سفيان . فحاصر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة ، حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب . وحتى قال النبي ﷺ ـــ كما أخبرني ابن المسيِّب ـــ : « **اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إنك إن تشأ أن لا تعبد** » .

فبينا هم على ذلك أرسل النبي ﷺ إلى عيينة بن حصن بن بدر الفزاري وهو يومئذ رأس المشركين من غطفان ، وهو مع أبي سفيان : « **أرأيت إن جعلت لك ثلث ثمر الأنصار ، أترجع بمن معك من غطفان ، وتخذل بين الأحزاب ؟** » فأرسل إليه عيينة : إن جعلت لي الشطر فعلتُ . فأرسل إلى سعد بن معاذ وهو سيد الأوس ، وإلى سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج : فقال لهما : « **إن عيينة بن حصن قد سألني نصف ثمركما ، على أن ينصرف بمن معه من غطفان ، ويخذِّل بين الأحزاب وإني قد أعطيته الثلث ، فأبى إلا الشطر ، فماذا تريان ؟** »

قالا : يا رسول الله إن كنت امرت بشيء فامض لأمر الله . فقال رسول الله ﷺ : « **لو كنت أمرت بشيء لم أستأمركما ، لكن هذا رأيي أعرضه عليكما** » قالا : فإنا لا نرى أن نعطيه إلا السيف . قال : « **فنعم إذن** » .

قال معمر : فأخبرني ابن أبي نجيح أنهما قالا له : والله يا رسول الله ! لقد كان (هذا في الجاهلية يمرُّ بجرُّ سربه ما يُطمع منه في بسرة) أفالآن حين جاء الله بالإسلام نعطيهم ؟ قال النبي ﷺ : « **فنعم إذن** »

قال الزهري في حديثه عن ابن المسيب : فينا هم كذلك إذ جاءهم نُعيم بن مسعود الأشجعي ، وكان يأمنه الفريقان ، كان موادعاً لهما فقال : إني كنت عند عيينة وأبي سفيان إذ جاءهم رسول بني قريظة : أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم ، قال النبي ﷺ : « **فلعلنا أمرناهم بذلك** » وكان نُعيم رجلاً لا يكتم الحديث ، فقام بكلمة النبي ﷺ فجاءه عمر . فقال : يا رسول الله ، إن كان هذا الأمر من الله فأمضه ، وإن كان رأياً منك فإن شأن قريش وبني قريظة أهون من أن يكون لأحد عليك فيه مقال . فقال النبي ﷺ : « **عليَّ الرجل ردوه** » فردوه ، فقال : « **انظر الذي ذكرنا لك ، فلا تذكره لأحد** » فإنما أغراه ، فانطلق حتى أتى عيينة وأبا سفيان ، فقال : هل سمعتم من محمد يقول قولاً إلا كان حقاً ؟ قالا : لا . قال : فإني لما ذكرت له شأن قريظة ، قال : « **فلعلنا أمرناهم بذلك** » قال أبو سفيان : سنعلم إن كان ذلك فأرسل إلى بني قريظة أنكم قد أمرتمونا أن

نثبت . وآنكم ستخالفون المسلمين إلى بيضتهم ، فاعطونا بذلك رهينة . فقالوا : إنها قد دخلت علينا ليلة السبت ، وإنا لا نقضي في السبت شيئاً ، فقال أبو سفيان : إنكم في مكر من بني قريظة فارتحلوا . وأرسل الله عليهم الريح ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أرسان خيولهم ، وانطلقوا منهزمين من غير قتال .

قال : فذلك حين يقول : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾)[1] .

٢ ــ ثم إن نعيم بن مسعود .. أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : « **إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة** » فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع

القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني . فقالوا : نفعل . قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أصلي وعشيرتي ، وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تتهموني ، قالوا : صدقت . ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكتموا عني ، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبا سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة .. فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدو للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى

نناجز محمداً . فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا .. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسِلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق .. فأبوا عليهم وخذل الله بينهم)[1] .

٢ ـــ عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال : (ذَكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه : أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك ، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافُّون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً منها ، في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه . فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولونَ : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة . فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم ويتسللون . ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى علي، وماعليَّ جنة[2] من العدو ولامن البرد، إلا مرط

لامرأتي ما يجاوز ركبتي قال : فأتاني وأنا جاث على ركبتي فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة . فقال : حذيفة ! فتقاصرت للأرض فقلت : بلى يا رسول الله ، كراهية أن أقوم . فقمت فقال : « **إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم** » قال : وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قراً قال : فخرجت فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته** » قال : فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قراً في جوفي إلا خرج من جوفي . فما أجد فيه شيئاً . قال : فلما ولَّيت قال : « **يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني** » قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقوم بيديه على النار ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل . ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله ﷺ « **لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني** » فأمسكت ، ورددت سهمي إلى كنانتي .

ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم . وإذ الريح في عسكرهم وما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضرب بها . ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ ، فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاه . قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة

بصلي ، فوالله ما عدا أن رجعت ، راجعني القر وجعلت أقرقف[1] . فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي ، فدنوت منه فأسبل عليَّ شملته ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى . فأخبرته خبر القوم ، أخبرته أني تركتهم يرحلون . قال : وأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ يعني الآيات كلها إلى قوله ﴿ **وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾[2] أي صرف الله عنهم عدوَّهم بالريح التي أرسلها إليهم)[3] .

٤ ــ وعن ابن عباس قال : احتفر رسول الله ﷺ الخندق ، وأصحابه قد شدو الحجارة على بطونهم من الجوع .. ثم مشوا إلى الخندق فقال : « **اذهبوا بنا إلى سلمان** » وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « **دعوني فأكون أول من ضربها** » فقال : « **بسم الله** » فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال : « **الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة** » ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة . فقال : « **الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة** » فقال عندها المنافقون : نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم)[4] .

٥ ــ (عن جابر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسب كفار قريش وقال : يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب . قال النبي ﷺ : **« والله ما صليتها »** فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان ، فتوضأ للصلاة ، وتوضأنا لها فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب)[١]

٦ ــ وعن جابر بن عبد الله (أن النبي ﷺ شغل يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فأمر بلالاً فأذن فأقام فصلى الظهر ، ثم أمره فأذن فأقام فصلى العصر ، ثم أمره فأذن فأقام فصلى المغرب ، ثم أمره فأذن فأقام فصلى العشاء . ثم قال : **« ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم »**)[٢]

٧ ــ (قالت أم سلمة رضي الله عنها : شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف ــ المريسيع وخيبر ، وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين ــ لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك أن **المسلمين كانوا في مثل الحرجة[٣] ، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري** فالمدينة تحرس حتى الصباح ، نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وقال محمد بن مَسلَمة

وغيره : كان ليلنا بالخندق نهاراً وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً ، ويغدوا ضرار بن الخطاب يوماً حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً ، وكان معهم رماة يقدِّمونهم إذا غدوا متفرقين ، أو مجتمعين بين أيديهم وهم حبَّان بن العرقة وأبو أسامة الجشمي في آخرين . فتناوشوا بالنبل ساعة ، وهم جميعاً في وجه واحد ، وجاه قبة رسول الله ﷺ . ورسول الله قائم بسلاحه على فرسه ، فرمى حبَّان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله[1] . وقال : خذها وأنا ابن العرقة ، فقال رسول الله ﷺ : « **عرَّق الله وجهه في النار** » ثم أجمع رؤساء المشركين أن يغدو جميعاً ، وجاؤوا يريدون مضيقاً يقحمون خيلهم إلى النبي ﷺ حتى أتوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون ، فلم تدخله خيولهم ، وعبره عكرمة بن أبي جهل ، ونوفل بن عبد الله المخزومي وضرار بن الخطاب الفهري ، وهبيرة بن أبي وهب ، وعمرو بن عبد ، وقام سائرهم وراء الخندق . فدعا عمرو بن عبد إلى البراز ـــ وكان قد بلغ تسعين سنة ، وحرَّم الدهن حتى يثأر بمحمد وأصحابه ـــ فأعطى رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه سيفه وعمَّمه[2] وقال : « **اللهم أعنه عليهم** » فخرج له وهو راجل وعمر فارساً ، فسخر به عمرو ، ودنا منه على ، فلم يكن بأسرع من أن قتله على ، فولى أصحابه الأدبار .

وسقط نوفل بن عبد الله عن فرسه في الخندق ، فرمي بالحجارة حتى قتل ، ومرَّ عمر بن الخطاب والزبير في إثر القوم ، فناوشوهم ساعة ، وسقطت درع هبيرة بن أبي وهب ، فأخذها الزبير رضي الله عنه .

ثم وافى المشركون سحراً وعبأ رسول الله أصحابه ، فقاتلوا يومهم إلى هويٍّ من الليل وما يقدر رسول الله ولا أحد من المسلمين أن يزولوا عن موضعهم ، وما قدر ﷺ على صلاة ظهرٍ ولا عصر ولا مغربٍ ولا عشاء ، فجعل أصحابه يقولون : ما صلينا ، فيقول : « **ولا أنا والله ما صليت**»حتى كشف الله المشركين، ورجع كل من الفريقين إلى منزله. وقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق ، فكرَّت خيل للمشركين يطلبون غِرَّة ـــ وعليها خالد بن الوليد ـــ فناوشهم ساعة فزرق[1] وحشي الطفيل بن النعمان الأنصاري بمزراقه ، فقتله كما قتل حمزة رضي الله عنه بأحد)[2] .

* * *

١ـــ لقد كانت عودة قريش من أحد ـــ رغم النصر الظاهري الذي حققته ـــ تحمل مرارة الخيبة في عجزها عن استئصال شأفة المسلمين في يثرب ، ولذلك استجابت لدعوة زعماء بني النضير لغزو محمد ﷺ من جديد ، واستجابت غطفان وهي نصف الناس . ومن أجل ذلك سميت الغزوة الأحزاب ، والقرآن أطلق عليهم هذه التسمية ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما**

زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .

لقد تمالأ العرب واليهود في الجزيرة ، وقاد أبو سفيان أضخم جيش شهدته جزيرة العرب الذي كان عشرة أضعاف جيش بدر ، وقرابة أربعة أضعاف جيش أحد ، إضافة إلى العدو الداخلي يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد ، وانضموا إلى الأحزاب .

لقد جاء الكفرة جملة واحدة ، وكما وصفهم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **لقد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب** ﴾ .

وإذن فلا بد أن يقر في حس الدعاة إلى الله أن الكفر كله قد يلتقي في مرحلة من المراحل على إبادة الإسلام والمسلمين ، ويتناسى خلافاته ، ويتناسى ما يسمى باستراجيته فالمصلحة فوق المبدأ ، واليهود الذين شهدوا لقريش أن دينها خير من دين محمد ﷺ ، وهو نقض لكل الأسس التي قام عليها وجودهم من ربانية الدعوة والرسالة .

وعلى الجماعة المسلمة أن تكون دائماً على غاية الحذر من هذه المخططات ، لتدرك كيف تواجهها في اللحظة المناسبة ، ولا تستسلم خائفة يائسة .

٢ ــ والخطة أن يطور المسلمون أساليبهم في مواجهة عدوهم ، بحيث تكون مكافئة لها بل سابقة عليها . هي قضية خطيرة يجب أن يعيها المسلمون تمام الوعي ، والاستفادة من الخبرات ، والطاقات الكامنة هي السبيل المناسب لذلك .

لقد كان حضور سلمان الفارسي رضي الله عنه غزوة الخندق أول حضور عسكري له مع النبي ﷺ ، وكان حضوره في الوقت المناسب حيث عاش المشكلة الضخمة التي تواجه المسلمين ، وقدم خبرته بهذا الصدد ، فيما كان يفعله الفرس إذا دهموا من عدو . ولم يكن سلمان رضي الله عنه من قادة المسلمين الكبار من المهاجرين والأنصار ، وكان قبل قليل مولًى لرجل من يهود ، لكن الخبرة تؤخذ من مظانها ، فالفرس أمة عريقة في القتال والحرب والمواجهة ، فلا بد أن يستفيد المسلمون من هذه الطاقاتِ والخبرات .

واستفاد النبي ﷺ من هذه الخبرة فطورها إلى أعلى مستوياتها ، لقد راد المدينة مع القيادات حوله ، واختار الموقع المناسب ، وتمت مباشرة تهيئة الوسائل الناقصة من حلفائهم بني قريظة وتم توزيع المهمات على المهاجرين والأنصار ، وتحددت الجزئيات كلها ، حتى في عمق الحفر ومسافته . وابتدأ التنفيذ على الفور . وهذه هي الإيجابية الفذة في التعامل مع الطاقات والخبرات . وشهد العدو مباشرة بالكفاءة الإسلامية ، وبالتفوق النوعي للمسلمين . وقالوا : إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها .

وأحبطت هذه الخطة عتاوة الهجوم الشرس على المسلمين من العدو اللدود .

٣ ــ وحين تُبذل الطاقة البشرية كلها جهداً ، ومالاً وقوة في الدفاع والذود عن الدين ، ثم تنقص الوسائل ، فالله تعالى هو الذي يرعى جنده وأحبابه .

والمعجزات التي ظهرت للنبي ﷺ في حفر الخندق ، لتؤكد أن الله تعالى هو الذي يهزم العدو وينصر حزبه .

« لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده » فهو الذي أطعم الجيش الجائع كله ، حين لم يجد الطعام والقوت الذي يعينه في حالة السلم فكيف في حالة الحرب ، والمطلوب من المسلمين أن يحفروا هذا الخندق بأقصر وقت ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي فتت الصخرة ـــ معجزة منه سبحانه ـــ حين عجز المسلمون جميعاً عن ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام الذي أضاءت له قصور الشام وفارس والروم .. وبشرهم بفتحها ، وهم بين براثن العدو يوشك أن يستأصلهم من جذورهم .

إن الله تعالى يطعم جنده ويسقيهم يوم لا يجدون طعاماً ، إلا عَناقاً وعدة أرغفة . وهو الذي يبعث الريح والجنود من عنده الذين لا يراهم المؤمنون ، ويهزم عدوه وعدوهم بها ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بماتعملون بصيراً، إذجاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾[1] .

وإن الانتقال من هذا الكرب والخوف وإطباق أهل الأرض على المؤمنين إلى أفق ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى**

الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾[1] . إن هذا الانتقال ، ليجلي تماماً الإرادة الربانية حين تريد بالمؤمنين النصر رغم كل القوى العاتية في الأرض ولو بدون قتال.

٤ ــ الخوف يقع وقد ينال كل النوعيات والمستويات الإيمانية ، لكن الموقف الناتج عن الخوف يختلف من إنسان لآخر ، وهنا موضع القدوة والأسوة .

فالمؤمنون في الخندق خافوا ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزاغت الأبصار ، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . فالمؤمنون الصادقون الصديقون رغم ما وقع بهم من الخوف والفزع قال الله تعالى عنهم : **﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾** .

أما المنافقون الذين أصابهم الخوف ، واقتلع قلوبهم الرعب ، فقال الله تعالى عنهم : **﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾** .

فلقد زاد الخوف المؤمنين إيماناً وتسليماً ، وزاغت عقيدة المنافقين قبل أن يزوغ بصرهم وقالوا : (إن محمداً يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ، ولا يأمن أحدنا أن يخرج إلى حاجته ، أو لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط)[1] .

ومثّل هذه القوة وهذا الثبات رغم الهول والفزع موقف سعد بن معاذ من مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة (قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمره إلا قِرًى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟! والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم)[2] .

٥ ــ وكان رسول الله ﷺ هو القمة التي لا يرقى إليها أحد في الثقة بالله ، والثبات أمام العدو ، فعندما بلغ النبي ﷺ صحة نقض قريظة للعهد قال : **« الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين »** .

وفي قلب هذه المحنة ، وشدة هذا الهول ، قال عليه الصلاة والسلام : **« إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح ، وليهلكن الله كسرى وقيصر ، ولتُنفقن أموالهم في سبيل الله »**[3] .

ولا شك أن القائد الواثق بنفسه ، الواثق بنصر الله له ، الذي يتمالك ويتماسك أمام الهول ، هو الذي يستحق القيادة بجدارة أسوة برسول الله ﷺ ، وقد يُغفر التزعزع والرعب للفرد العادي ، أما القائد الفذ فهو الذي يستطيع أن يرفع معنويات جنوده من الحضيض ، ويقارع بهم العدو ، أما أن يكون الوهن والعجز لدى القائد ، فعلى جماعته العفاء .

٦ ــ حيث أن المعركة معركة عقيدة ، فلا بد من اللجوء إلى الله تعالى وحده أن يكشف الغم ، ويزيل الكرب ، واللجوء إلى الله تعالى والتذلل له ، وطلب النصر منه وحده ، هو أمر غير أمر الزلزلة أو التراجع . ولا بد أن يتميز في حس المسلم بين هذين الجانبين .

فعن عبد الله بن أبي أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ يوم الأحزاب فقال : « **اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب .. اللهم اهزمهم وزلزلهم** »[1] .

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحبه ، ثم للمسلمين في الأرض ، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل ، لم تُهزم بالقتال من المسلمين ــ رغم تضحياتهم ــ ولم تُهزم بعبقرية المواجهة ، إنما هزمت بالله وحده ، بالمسلم الذي أسلم في قلب المعركة ، واندفع يخذل العدو ، وبالريح التي قلبت قدورهم واقتلعت

خيامهم ، ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : « **لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده** »[2] .

عن جابر رضي الله عنه قال :

(دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب في مسجد الأحزاب يوم الإثنين ، ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء . فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء . قال : فعرفنا السرور في وجهه . وقال جابر : فما نزل بي أمر غائظ مهم إلا تحينت تلك الساعة من ذلك اليوم فأدعو الله ، فأعرف الإجابة)[3] .

٧ ــ ودعاء رسول الله ﷺ ربه ، واعتماده عليه وحده ، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشرية للنصر ، فقد بذل عليه الصلاة والسلام جهده لتفريق القوم وفك الحصار . واختار أضعف النقاط وهي غطفان ، فليس بين غطفان ورسول الله ﷺ حرب مباشرة مع أنها تمثل نصف الجيش ، وإنما حرّكها لذلك الرغبة في الغنيمة أكثر من أي شيء آخر ، فإذا

عولجت بالعلاج نفسه ، ورأت مصلحتها في ترك حرب رسول الله ﷺ فعلت . وقد وقع ذلك ، لولا طمع عيينة بن حصن في نصف ثمار المدينة ، على بعض الروايات ، أو رفض السعدين المصالحة التي لم تُبرم بعد ، وأُرجئت على موافقة السعدين ، هو الذي حال دون ذلك ، وكان لحكمة أكبر ولله الحمد .

وتوجيه رسول الله ﷺ لنُعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه أن يمضي في تخذيل القوم والإذن له بالخديعة في الحرب كما في رواية ابن إسحاق ، إنما هي جهد بشري بشري تُكلَّف القيادة به في محاولة لإنقاذ الموقف وتفتيت صف العدو .

٨ ــ والتضحيات العظيمة التي قدمها المسلمون في حراستهم للخندق ، وحراستهم لرسول الله ﷺ ، وصد الهجوم المتفرق ، والهجوم المطبق الذي شنه عليهم المشركون من أبطال المشركين لهو دليل حي على يقظة المسلمين وقيادتهم ، حتى ليستمر القتال ذات يوم من السحر إلى هوي من الليل في اليوم الثاني ، ويفوت المسلمون الصلوات الأربع ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال .

ومواجهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو في ريعان شبابه لبطل قريش عمرو بن عبدود ، وشدة شكيمته في قتاله حتى قتله ، لتؤكد قدرة المسلمين في اللحظات الحاسمة على مواجهة الصعاب مهما كانت ومقاومة التحديات مهما ادلهمت ، فبذل الروح والنفس هو أهون ما يملكه المسلم .

وتبقى هذه الصورة كاملة بجوار النفاق الذي نجم والذي أخذ المساحة الأكبر في سورة الأحزاب في الحديث عن الغزوة ، ليتضح أن الصف ليس خالصاً كله ، وليس نقياً كله ، ولا يزال للمنافقين وجود واضح فيه ، والذي تصاغر وسقط وانحط أمام تدخل رب العالمين .

٩ ــ والانضباط العظيم الذي شهدناه لدى حذيفة رضي الله عنه ، ما أحوج الشباب إلى التأسي به في أبرز نقاطه .

(أ) يوم دعا الشباب إلى تخفيف غلوائهم ، وهم يتصورون الواقع نظرياً ، وأنهم لو كانوا هناك أيام رسول الله ﷺ لما تركوه يمشي على الأرض ، فنزل بهم إلى أرض الواقع في الصف الإسلامي ــ خيرة أهل الأرض .

(ب) في تحديد مستوى الجندي الملتزم الذي لا ينبغي له أن يتراجع أو يتلكأ أو يعتذر حين يُكلف بشخصه وعينه (فلم يكن لي بد أن أقوم حين دعاني رسول الله ﷺ باسمي) من دون أن يتهم أحداً بدينه أو يشكك في عقيدته حين كان الأمر تطوعاً لا فريضة .

(جـ) وفي التزامه يوم وضع سهمه ، ولم يكن إلا أن يرمي به أبا سفيان فيقتله ، ورنت في أذنه كلمة قائده الحبيب « **لا تحدثن بهم حدثاً** » فنزع سهمه وأقلع عن رميه التزاماً بأمر قائده .

١٠ــ وكانت الخندق فعلاً نهاية ليل طويل ومحنة قاسية امتدت ما ينوف عن سنتين ، كان المسلمون فيها في محن متتابعة ، وطمعت العرب بهم بعد أحد ، إلى أن آذن الله تعالى بانتهاء هذه المرحلة ، حيث بلغت المحنة قمتها بعشرة آلاف من الأحزاب ، للبدء بمرحلة جديدة حددها عليه الصلاة والسلام « **الآن نغزوهم ولا يغزوننا** » .

وأخذ زمام المبادرة لغزو المشركين ، في عقائدهم قبل غزوهم في أجسادهم ، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم .

الفصل الخامس والعشرون

غزوة الحديبيـــة

أحداث الحديبية :

١ ـــ (عبـد الـرزاق عن معمـر ، قال : أخبرني الزهـري ، قال : أخبرني عروة بن الزبير عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم ـصدَّق كل واحدٍ منهما صاحبه ـــ قالا :

(خرج رسول الله ﷺ زمـن الحديبيـة في بضع عشرة مائـــة من أصحابـه ، حتـى إذا كانـــوا بذي الحليفـــة[١] ، قلَّـــد رسول الله ﷺ الهدي ، وأشعـره ، وأحـرم بالعمـرة ، وبـعث بين يديـه عينـاً من خزاعـة ـــ يخبره عن قريش ـــ وسار رسول الله ﷺ حتـــى إذا كان بغديـــــر الأشطاط[٢] قريباً من عُسفان أتاه عينُه الخزاعي فقـال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش[٣] ، وجمعـوا لك جموعـاً

وهـم مقاتلـوك ، وصادوك عن البـيت . فقـال النبـــي ﷺ : « **أشيروا عليَّ ! أتـرون أن نميـل إلى ذراري هؤلاء الذيـن أعانوهـم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعـدوا موتوريـن محروبين**[1] **وإن يجيئـوا تكـن عنقـاً قطعهـا الله ، أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدَّنا قاتلنـاه** » فقالـوا : رسول الله أعلـم ، يا نبي الله إنما جئنا معتمرين ، ولم نجيء لقتال أحد ، ولكـن من حال بيننـا وبين البيت قاتلناه ، قال النبي ﷺ : « **فروحوا إذاً** » .

فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : « **إن خالد بن الوليد بالغميم**[2] **في خيل لقريش طليعة ، فخـذوا ذات اليمين** » ، فوالله ما شعـر بهم خالـد إذ هو بقتـرة[3] الجيش ، فانطلـق ، فإذا هو يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كانوا بالثنيـة التـي يهبـط عليهم منها بركت به راحلتـه ، فقـال النـاس : حَلْ حَلْ . فقالـــوا : خلأت[4] القصواء ، خلأت الـقصواء . فقـال النبـي ﷺ : « **ما خلأت الـقصواء وما ذاك لها بخلق ، ولـكنها حبسهـا حابس الفيـل** » ثم قال : « **والـذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياهـا** » ثم زجرها ، فوثبت به .

قال : فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[5] قليل الماء ، إنما

يتبرَّضه[1] الناس تبرضاً ، فلم يُلبثه أن نزحوه فشُكي إلى رسول الله ﷺ ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه . قال : فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه . فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[2] . وهم مقاتلوك ، وصادُّوك عن البيت . فقال النبي ﷺ : **« إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم[3] الحرب ، وأضرَّت بهم ، فإذا شاؤوا ماددتهم[4] مدة ويخلُّوا بيني وبين الناس . فإن أظهر ، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل به الناس فعلوا ، وإلا فقد جمُّوا[5] وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[6] أو لينفذن الله أمره »** .

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء ، وقال

ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا . فحدثهم بما قال النبي ﷺ ، فقام عروة بن مسعود الثقفي ، فقال : أي قومي ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى . قال : أولست بالولد ؟ قالوا : بلى . قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ . فلما بلَّحوا عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آته ، فقالوا : فأته . فأتاه .

قال : فجعل يكلِّم النبي ﷺ نحواً مما قاله لبديل . فقال عروة عند ذلك : أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ، وإن تكن الأخرى ، فإني لأرى وجوهاً ، وأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا عنك . فقال أبو بكر : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ فقال : من ذا ؟ قال : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يدلك عندي لم أجْزِل بها لأجبتك . قال : وجعل يكلِّم النبي ﷺ . فكلما كلَّمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة يده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه ، قال : من هذا ؟ فقالوا : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غدر أولست أسعى في غدرتك ..

ثم إن عروة جعل يرمق صحابة النبي ﷺ بعينيه : فوالله ما تنخَّم رسول الله نخامة إلا وقعت في يد رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له ، قال : فرجع

عروة إلى،أصحابه فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر ، وكسرى ، والنجاشي ، والله إن رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً .. وإنه عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من كنانة[1] : دعوني آته . فقالوا : ائته ، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه . قال رسول الله ﷺ : « **هذا فلان وهم من قوم يعظّمون البُدْن . فابعثوها له** » فبعثوها له ، وانطلق القوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدو عن البيت . فقال رجل منهم يقال له مكرز بن حفص : دعوني آته . قالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : « **هذا مكرز وهو رجل فاجر** » فجعل يكلم النبي ﷺ ..)[2] .

٢ ــ قال ابن إسحاق : (... ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي . وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان . فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة فلقيه إبان بن سعيد بن

العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلَّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان بن عفان قد قتل)[1] .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم . فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر . فبايع رسول الله ﷺ الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها ، إلا الجد بن قيس ، أخو بني سلمة ، فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد خبأ إليها يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل . قال ابن هشام : وحدثني من أثق به عمن حدَّثه بإسناد له عن ابن أبي مليكة عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى)[2] .

٣ــ قال معمر : قال الزهري في حديثه . فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتاباً ، فدعا النبي ﷺ الكاتب ، فقال النبي : « **اكتب بسم الله الرحمن الرحيم** » فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا يكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال رسول الله ﷺ : « **اكتب : باسمك اللهم** » ثم قال : « **هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله** » فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : « **والله إني لرسول الله ، وإن كذبتموني . اكتب محمد بن عبد الله** » قال الزهري : وذلك لقوله « **لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها** » فقال النبي ﷺ : « **على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به** » فقال سهيل : لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة . ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب : فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين . فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما

أقاضيك عليه أن تردَّه إلي . فقال النبي ﷺ « **إنا لم نقض الكتاب بعد** » **قال : فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي »** فقال : ما أنا بمجيزه لك . قال : « **بلى فافعل** » قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه لك . فقال أبو جندل : أي معشر المسلمين أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟! ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله . فقال عمر بن الخطاب : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، قال : فأتيت النبي ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقاً ؟ قال : « **بلى** » قال : قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : « **بلى** » قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : « **إني رسول الله ، ولست أعصيه وهو ناصري** » قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « **بلى ، فأخبرتك أنك تأتيه العام** » قلت : لا . قال : « **فإنك آتيه ومطوَّفٌ به** » . قال : فأتيت أبا بكر ، فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : فلِمَ نعط الدنية في ديننا إذاً . قال : أيها الرجل إنَّه رسول الله ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره . فاستمسك بغرزه حتى تموت . فوالله إنه لعلى الحق . قلت : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ، ونطوف به ؟ قال : فأخبرك أنه سيأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال الزهري : قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : « **قوموا فانحروا ثم احلقوا** » قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات . قال : فلما لم يقم منهم أحد . قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت أم سلمة : يا نبي

الله أتحب ذلك ، أخرج ثم لا تكلِّم أحداً منهم حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك ، نحر بُدْنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً غماً)[1] .

* * *

١ ــ **« الآن نغزوهم ولا يغزونا »** لقد ابتدأت المرحلة الجديدة ، وتحرك المسلمون نحو مكة : صحيح أنهم قاصدو العمرة . لكن هذا التحرك بحد ذاته إيذان بمنطلق جديدْ ، محفوف بالأخطار ، فلن ترضى مكة ببساطة هذا التحدي ، وقد عبأت كل قواتها من بني عامر بن لؤي وكعب بن لؤي والأحابيش (قريش الظواهر وقريش البطاح) أهل مكة والأعراب المجاورون حولها . يعاهدون الله أن لا يدخل محمد مكة عنوة أبداً . وقد أبدى عليه الصلاة والسلام استعداده للمواجهة مرتين :

الأولى : حين بلغه تجمع قريش لمواجهته فقال : **« أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدَّنا قاتلناه »** .

الثانية : في الرسالة التي بعثها مع بديل بن ورقاء : **« إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين .. وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره »** .

قبل عام كانوا محاطين بعشرة آلاف مقاتل من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهم الآن على مشارف مكة ، يستعدون للمواجهة مع من يحول

بينهم وبين البيت الحرام .

٢ ــ لقد تغير الموقف والاتجاه مع الرسول ﷺ ، منذ أن كانوا في الثنية التي يهبط منها على الحديبية ، وبركت الناقة هناك .

لقد كانت الاستشارة قبل بروك الناقة قائمة ، في المواجهة أو غزو ذراري المشركين ، وحتى في نزول الأمكنة ، لكن بروك الناقة يعني تطوراً جديداً في الخطة النبوية عبَّر عليه الصلاة والسلام عنها بقوله : **« ماخلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكنها حبسها حابس الفيل »** وحابس الفيل حال دون أبرهة ومكة ، ولهذا أعلن عليه الصلاة والسلام ملامح الخطة الجديدة المتطورة : **« والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »** .

وهذا التطور تم من غير مشورة ، إنما تم بتوجيه رباني صرف ، قرَّر عليه الصلاة والسلام على ضوئه الانتقال من المواجهة إلى المصالحة أو الهدنة ما أمكن ذلك .

٣ ــ ولكنها ليست الهدنة أو المصالحة عن ضعف ، بل هي من موطن القوة . ورسل قريش الذين جاؤوا أربعة :

بديل بن ورقاء : وهو متهم بتحيزه لمحمد ﷺ ، لكن الرسالة التي حملها بثت الرعب في قلب القوم .

عروة بن مسعود : الذي استنجد بثقيف فلم تنجده فجاء بأهله وخاصته ليظاهر قريشاً ضد محمد ﷺ ، ولقد أبدى المسلمون أمام عروة ابن مسعود من القوة والانضباط والتفاني بقيادتهم ما أذهل عروة . يقتتلون على وضوئه ، يبتدرون نخامته فيدلكون بها وجوههم ، وكان لا بد من هذه

المظاهر لتواجه مكر ثقيف المتمثل بعروة والذي حاول أن يوهن الصف المسلم ويتهمه بالتخاذل (فإني لأرى وجوهاً وأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا عنك) ، فكان الرد الحاسم الصارم من أبي بكر الصديق .. أبي بكر الحليم الوديع الهادئ يجيبه بقوله : (امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟) وفي جواب ابن أخي عروة المغيرة بن شعبة الذي يهدد عروة بقوله : (أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك) . لقد تماسك عروة ظاهراً ، أما حقيقة قناعته فهي التي نقلها لقريش : (والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت ملكاً قط يعظِّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً) ثم دعا قريش لقبول المصالحة .

الوافد الثالث : الحليس بن علقمة زعيم أعراب مكة ، ومنذ أن رآه رسول الله ﷺ قال : **« إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا في وجهه الهدي »** فرأى الهدي فقفل راجعاً من حيث جاء ، ومضى يسائل قريشاً : أيُصد عن البيت من جاء معظماً له ؟ فيقول له أحدهم : اجلس إنما أنت أعرابي .. فثارت ثائرته وقال : والله ما على هذا حالفناكم .. والذي نفس الحليس بيده لتخلُن بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرةَ رجل واحد .

الوافد الرابع : مكرز بن حفص ، وقال عنه عليه الصلاة والسلام عندما رآه : **« هذا رجل غادر »** وكلَّم نحواً مما كلَّم بديلاً الخزاعي .

لقد باءت خطة مكة بالفشل ، وهي تحاول أن تثني محمداً وصحبه بالإرهاب والتخويف ، ووجدت نفسها مسوقة مرغمة إلى

المفاوضات .

إنها عظمة القيادة النبوية التي تسيطر على الموقف . وتواجه كل طارئ بما يناسبه ، وعظمة الصف المسلم الذي بدا أمام هؤلاء في أعلى مستوى من الانضباط والطاعة والاستعداد للفداء .

٤ ـــ وإلى سفارة عثمان وبيعة الرضوان : فيقف المسلم أمام جرأته ، حيث يمضي لمكة معقل الشرك والمشركين ، ليبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، والتزامه في رفضه الطواف حتى يطوف النبي ﷺ . ومثل هذا الجندي الفدائي ، ما أن يبلغ رسول الله ﷺ مقتله ، حتى ليرى نفسه أن لا خيار أمامه إلا الحرب ، إنها القيادة الفذة التي تخوض حرباً من أجل جندي واحد بلغها مقتله .

ويعجب المرء أكثر لالتزام الصف المسلم كله ، القادم للعمرة لا للحرب ، فحين يدعو رسول الله ﷺ للبيعة على الموت أو على عدم الفرار ، لا يوجد في الصف كله من يعترض أو يناقش ، إننا لو كنا في غير هذه الأمة لحقد الجنود على قائدهم أن جاء يورطهم في حرب لم يعدوا لها عدتها ، وهم خارجون للنسك لا للقتال . وقد يعذر القائد واحداً أو اثنين أو أكثر ، أما في الصف المسلم ، في الألف والأربعمائة ، لم يتخلف إلا منافق واحد لم يجرؤ على البيعة واختبأ في ظل ناقته ، وحق لهؤلاء أن يكونوا خير أهل الأرض .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال لنا رسول الله

ﷺ يوم الحديبية : ﴿ **أنتم خير أهل الأرض** ﴾ وكنا ألفاً وأربعمائة)[1] .

هذا الصف المسلم الذي يبايع على الموت ، توقف المعركة ، ويقر الصلح ، ويقرَّ رسول الله ﷺ بنوداً في ظاهرها انتقاص للمسلمين ودنية في دينهم ، قد يتكلمون قبل أن يقول الرسول ﷺ كلمته ، ولكن بعد أن يقولها ، فالسمع والطاعة ، وإن كادوا ليتميزون غيظاً من الألم . لكن هذا لا ينال من انضباطهم شيئاً .. ويفقد ابن الخطاب رضي الله عنه توازنه وأعصابه ، ويحتج ويأتيه الجواب : ﴿ **إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري** ﴾ .

إن صفاً بهذا المستوى العظيم يبايع على الموت ، ولم يأت للحرب ، ثم يلتزم بإيقاف الحرب لعشر سنين ، في فترة واحدة لهو مؤهل أن يغير وجه التاريخ ، وقد فعل .

ومن أجل هذا كان أصحاب بيعة الرضوان أفضل المسلمين في الأرض إلى قيام الساعة بعد أهل بدر .

وإن الدعاة إلى الله اليوم مدعوون إلى أخذ أنفسهم بالتربية والمجاهدة إلى أن يقتربوا من هذه القمة السامقة في تكوين القاعدة الصلبة ، التي تحارب حين يحارب أميرها ، وتسالم حين يسالم .. تحمل السلاح حين تؤمر ، وتضع السلاح حين تؤمر .. طائعة على المنشط والمكره وأثره عليها ، وعندما تبلغ القاعدة الصلبة هذا المستوى تكون

مؤهلة للتمكين في الأرض ، والاستخلاف فيها ، وتحقيق موعود الله بنصره وتأييده .

٥ ــ وكانت الحديبية الفتح المبين : فظاهر الأمر ذلة للمؤمنين ، في عودتهم عن مكة وقد صدوا عن البيت ، وفي التزامهم برد من جاءهم مسلماً دون أن يلتزم المشركون بمقابله ، وفي إصرارهم على أن يمحوا اسم الله واسم رسوله من وثيقة الصلح ، وقد تجسد هذا الغيظ مضاعفاً بقدوم أبي جندل بن سهيل ، وقد فرَّ من المشركين للمسلمين ، ويصرخ : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني .

ورسول الله ﷺ يقول : « **اصبر أبا جندل فإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً** » .

هذا هو ظاهر الأمر ، للعقل البشري القاصر ، أما أبعاده فكانت في ميزان الله غير ذلك :

(أ) فعن البراء بن عازب قال : (تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية)[1] .

(ب) (عن زيد بن أسْلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره ، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً ، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ، وقال عمر بن الخطاب : ثكلتك أمك يا عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيري

ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي . قال : فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن ، وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال : « **لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب عليَّ مما طلعت عليه الشمس** » ثم قرأ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾)[٣] .

(جـ) (عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم ، قال : لما نزلت : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله** ﴾ إلى قوله ﴿ **فوزاً عظيماً** ﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهدي بالحديبية ، فقال : « **لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعاً** »)[٣] .

(د) (عن أنس بن مالك رضي الله عنه : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ قال : الحديبية . قال أصحابه : هنيئاً مرئياً فما لنا فأنزل الله : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات** ﴾ قال شعبة : فقدمت الكوفة فحدَّثت بهذا كله عن قتادة ثم رجعت فذكرت له فقال : أما ﴿ **إنا فتحنا لك** ﴾ فعن أنس ، وأما ﴿ **هنيئاً مريئاً** ﴾ فعن عكرمة)[٣] .

وحق لعمر رضي الله عنه أن يرتجف قلبه بعد الموقف العنيف الذي

وقفه ، وهو يسأل رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلا يرد عليه ، حتى

ليخشى أن ينزل الله فيه قرآناً ، وعندما نزلت آية الفتح اختار رسول الله ﷺ عمر بالذات ليسمعه إياها رداً على تصوره : (فَلِم نعطِ الدنية في ديننا) ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾[1] .

وحقَّ لرسول الله ﷺ أن تكون هذه الآية ، أحب إليه مما طلعت عليه الشمس ، وأحب عليه من الدنيا جميعاً ، فالله تعالى قد فتح له الفتح المبين ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأتم نعمته عليه ونصره نصراً عزيزاً ، فأي نعم في هذا الوجود تفوق هذه النعم ؟

وقد نزلت والمسلمون يخالطهم الحزن والكآبة لما نزل بهم من هم الحديبية ، وحقَّ لهم أن يفرحوا بعد حزن ، وقد سروا لسرور رسول الله ﷺ إن كان النصر والفتح والمغفرة لرسول الله ﷺ فماذا لهم ؟ ويأتيهم الجواب : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً** ﴾[2] .

وكان هذا الفتح المبين ، هو فتح القلوب لهذا الدين والتوطئة لفتح مكة :

يقول الزهري : فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمِن الناس كلٌم بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على ما قاله الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل في قول جابر ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)[1] .

لقد انطلق الإسلام ، وتجاوز ليل المحنة الطويل الذي جثم من أحد إلى الخندق ، وكان صلح الحديبية إيذاناً بفجر جديد للدعوة والدعاة .

أمنياتي لكم بالتوفيق والنجاح